ريمون رويه

الممارسة الإيديولوجية

ترجمة
الدكتور عادل العوا

منشورات عويدات
بيروت - باريس

الممارسة الإيديولوجية

الطبعة الثانية ١٩٨٩

الفصل الاول

عقائديات تكافؤ الاضداد حيال التقنية

تعاني العقائديات اليوم حيرة عميقة حيال التقدم التقني . فهي تارة تراه خلاصاً وتراه ضياعاً تارة اخرى . ولهذه الحيرة اسباب عميقة . فضروب تقدم الحياة العضوية كانت على الدوام ضروب تقدم تقني بوجه خاص ، سواء كان ذلك في الكيمياء الاساسية للكائن الحي أو في استعداداته بالمقياس العادي . ولكن الحياة كانت ايضاً كفاحاً دائماً ضد الوسائل الفيزيائية ـ الكيميائية التي تستخدمها . وقد تحورت الحياة تبع خصمها ـ المعين . فالشعوعيات (١) والثقيبيات (٢) ، وسلعاً الفيروسات ، تشبه بلورات صغيرة منتظمة . ولكنها لو كانت مجرد بلورات لما كانت حية . ان السمكة قد تبدو مجرد جهاز سباحة ، وقد حوّرته قوانين ديناميك السوائل (٣) كما ان العصفور جهاز طيران بحسب قوانين علم الغازات (٤) . ولكن من الثابت ان العضوية لم تتحور تحوراً سلبياً . بل ان تكيفها تكيف فاعل .

وفي تطور الانواع النباتية والحيوانية ، كان ظهور تقنيات جديدة (٥) ، بطريق المصادفة او المهارة ، بالطفرة او بالاختراع ، مع أحوال اخفاق لا تحصى دفع ثمنها بالقضاء على الطافرين او المخترعين ، كان ظهورها

---

(١) Radiolaires (٢) Forminifères

(٣) Hydrodynamique (٤) Aerodynamique

(٥) استكمالا للبحث من المفيد الاطلاع على : نقد المجتمع المعاصر ، نقد الايديولوجيات المعاصرة للمؤلف نفسه في سلسلة « زدني علماً » الناشر

بطيئاً جداً لانه كان يجري في دارة داخلية ، في نسيج الحيوان ذاته .

ومع الانسان ، هذا الفقري — الممكنن ، تجري الطفرات والاختراعات في دارة خارجية .

وبديهي ان التطور التقني الخارجي يمضي بسرعة اعظم من التطور البيولوجي للتقنية الداخلية . انه يتيح اصطفاء « خارجياً » ، اقل قسوة بكثير بالنسبة للمخترع أو للمبادِه. فاذا لم تعمل الآلة المخترَعة والمصنوعة ، لا يموت مخترعها او مستعملها من جراء ذلك . ان جهاز تدفئة مركزية قاصر لا يقتل أحداً ، على نقيض جهاز تجانس لحرارة البدن ، ان كان قاصراً ، اي من الحمى .

يمكننا أن نلهو بأن نرى فيما تقدم تأييداً لاستقلال التقنية استقلالاً ذاتياً . وكل شيء يجري كما لو ان التقنية ، وهي اشبه بإله ، تتعجل التحقق ؛ وقد اخترعت ، بادىء ذي بدء ، الحيوان ، باعتباره تقنية متجسدة ، ثم اخترعت حيواناً خاصاً ، هو الانسان ، باعتباره مسرّعاً لمحاولات التحقيق بفضل « نظّامته الدماغية » ، واخيراً بفضل نظاماته الصناعية . ان المعايير التقنية هي ذاتها في الاجهزة الخارجية والاجهزة العضوية . ان الطائرة ، والغوّاصة ، تخضع لذلك خضوع الطير أو السمكة . اما إحكام الاجهزة فانه اسرع ، على الاقل بمائة ألف مرة ، منذ القرن التاسع عشر . وان عشر سنين من التقنية تعدل مليوناً من السنين البيولوجية ، وهي اقل منها ابادة واتلافاً .

ولكن في وسعنا ان نفهم أن التقنية الخارجية ، بالرغم من انها منفصلة مادياً عن العضوية الانسانية ، فان لها على ضروب السلوك الاجتماعي تأثيراً اعمق من تأثيرها في سلوك العضوية الفردية . ان انقطاعاً في التيـــار

الكهربائي ، كالانقطاع الشهير الذي حدث سنة ١٩٥٨ في (نيويورك) ، يشل « الجسد » و « الشعور » الاجتماعي ، ويصيبهما باغماء تبلغ قسوته تقريباً قسوة الشلل الذي يحدثه في الشعور العضوي توقف التغذية بالاوكسجين . ان عجزاً في الوظائف التقنية الخارجية الخاصة بحذف النفايات – اضراب منظّفي الشوارع – ضار مثل ضرر مرض كلوي . وكذلك فان النسج الشديد الضيق هو ضار حتماً .

ان « هيكلة المنصة » التقنية خطرة بالخلل الذي قد يصيبها ، ولكنها اعظم خطراً بايقاع نموها . انها لا تفسح المجال امام عناصر الحضارة الاكثر عضوية ، والاقل تعديناً ، كيما تتكيف مع هذه الهيكلة العظمية الغريبة التي تكبر باطراد . انها ليست « الحصان في القاطرة » كما ذكر (ا . كستلر) A. Koestler ، بل هي « الحصان الذي التهم قاطرة » . لقد تحمل الانسان على نحو جيد جداً ضروب التقدم التقني التي حققتها الصناعات اليدوية – وعلى الاقل ، اننا نتخيل ذلك على مبعدة منه . حتى ان الادوات القديمة ، بل والآلات العتيقة ، شرعت تتحلى بسمة جمالية ، وصار هواة الجمع يبحثون عنها – وفي هذا دليل على انها ما زالت تتسم بسمة شبه عضوية لاجسام غير غريبة عن النسيج الاجتماعي . اضف الى ذلك ان الانسان قد تحمل بصورة موائمة بوجه التقريب تسارع التقنية الخارجية تسارعاً تطورياً حتى القرن التاسع عشر . وقد لاحظ (كورنو)(١) ان الانسان قد أحسن دائماً تحمل الاختراعات الميكانيكية (المتحركة) المتصلة بالفن بأكثر من اتصالها بالعلم ، والتي لم تغب عن أي عصر من العصور ، والتي انتجت تحسين الصناعات اليدوية .

---

(١) اعتبارات ... (٢ ص ١٩٩) .

ان اكتشاف مصادر جديدة للطاقة هو الذي احدث الثورة الصناعية الاولى . وقد تجاوزت هذه الثورة قدرة المجتمع على التمثل . ولم تبرأ من ذلك ابداً . بل ان ثورات تقنية اخرى تزيد من خطر الوضع . وان تسارع التاريخ هو في الواقع تسارع التقنية التي تبدع انواعاً من انقطاع التوازن بعضها فوق بعض ، وهو يضطر المجتمعات التقدمية على ان تكون على الدوام في حال تمازج – ثقافي – ذاتي ، مثل الشعوب المتخلفة ، والمستعمَرَة (التي تستعمرها في الظاهر الامبريالية السياسية أو الاقتصادية ، وهي في الواقع فريسة استعمار امبريالية مغفلة هي امبريالية التقنية) يضطرها على ان تكون في حال خطر دائم بابادة النوع .

لم تكد ثورة ٨٩ السياسية تصيب الاقاليم الفرنسية بسوء . اما ثورتها الحقيقية فقد حدثت حوالي سنة ١٨٥٠ – ١٨٦٠ بالسكك الحديدية ، ومصانع النسيج ، والتعدين . ثم توالت الصدمات منذئذٍ .

ان يكون الكائن غير مرتاح في جلده ، أو في قوقعته ، أمر مزعج . ولكن هناك ما هو أسوأ : ان يكون غير مرتاح في هيكله العظمي ، أو فوق هذا الهيكل ، لان من المتعذر تبديل الهيكل العظمي مثلما تبدل الافعى جلدها . ان الاصطفاء الطبيعي للطفرات التقنية العضوية ، بطريق حذف عيوب الغش حذفاً قاسياً ، اصطفاء عرفت التقنية الخارجية كيف « تلتف » حوله ، وهو يهدّد بالعودة لتأكيد ذاته على المستوى الجديد ، وذلك بأن يبيد المجتمعات التي تسرف في تقدميتها .

وعندما استُعمل الدماغ بوصفه عضو تجارب ذهنية ترمي الى اختراع آلات خارجية ، جعل احد فروع القردة ينتصر . ولكنه يتهدد اليوم وجود هذا (القرد) المنتصر ذاته ، يتهدده بتكون مستقيم خارجي رهيب . ويعظم

ذلك كلما وجدت المجتمعات التقدمية ان من الجيد زيادة تسريع هذا التسارع بوقف مرافقها الجمعية على البحث العلمي والتقني ، وبدون المرور بالمصفاة الاقتصادية التقليدية التي كانت ، على الاقل ، تكيّف الى حد كبير أو صغير التقدم التقني مع الحاجات والعادات الفردية .

كل شيء يجري كما لو ان (الاله — التقنية) ، وقد اضحى شيطاناً ، وهو يطلب على الدوام مزيداً من التعجل ، آب من الحث على استخدام دماغ (القرد) بوصف هذا الدماغ مسرّع تحقيــق ، آب من ذلك الى استخدام الجماعة بأسرها ، وقد دعتها الحكومات الى ان تصبح جماعة « باحثين » علميين وان تقف وجودها لخدمة مذابحها بأكثر من وقف هذا الوجود على خدمة الحياة . وقد منع الشيطان ، بمهارة شيطانية ، القيام بأي كبح تحت طائلة العقاب بالموت . وتدبر الامر على نحو أن جعل جميع الشعوب التي ما زالت تعصي عبادته ، والتي تريد انقاذ ارواحها ، جعلها تعجز عن مقاومة الشعوب الاخرى التي تفوقها تقنية وتتهددها ، فتعتنق بدورها الحضارة التقنية ، وتفقد روحها من اجل انقاذ هذه الروح — مثل (اليابان) و (الصين) و (الهند) . وإذا تخلف طوعاً شعب من الشعوب ، أصيب بذعر سريع ، وعاد تائباً منيباً الى عبادة الاله ، أو (الشيطان — التقنة) .

ومن حيله الماكرة ان كل اختراع جديد يخفي لعبه ويمنع فك ألغاز نتائجه الاجتماعية الممكنة . من المحال عندئذٍ التنبؤ بسعته وبمحاسنه أو مساوئه . وان تحسيناً طفيفاً لجهاز من الاجهزة قد يبدّل نتائجه الاجتماعية . ان (الترانزستور) الصغير الذي يحمله الشبان في نزهاتهم كلها لم يكــن يختلف اختلافاً كبيراً من الناحية التقنية عن المذياع الكبير ذي المصابيح ،

مذياع الاسرة . وعلى الرغم من ذلك فان النتائج الاجتماعية مختلفة جداً ، مثل نتائج الساعات اليدوية بالنسبة الى ساعات الجدار ذات النواس .

كيف اذن ، والحال تلك ، يمكن اقتراف جحود ، إلحاد ، باجتراح « وأد تقني » ؟ ان سَنّ قانون ضد الاختراعات سيبدو دائماً على انـه « مالتوسية » وحشية مجرمة . وعندما يترعرع الاختراع يكون الوقت قد فات من أجل قتله . والمجانين وحدهم هم الذين قد يقترحون ابادة المصانع . ويثير « الوأد المؤجّل » للتقنيات الاشمئزاز والكره مثل « حرب وأد الابناء المؤجلة » وقد تكون نتائجه قاتلة ، بوجه التقريب ، لجماهير بأسرها حين توقعها في البطالة .

ان المهنة الذائعة اليوم ، مهنة المتنبىء بالمستقبل ، مهنة شاقة جداً ، لان التقنية العلمية ، ولنموها استقلال ذاتي ، تتضافر مع النظم الاجتماعية تضافراً اقرب الى المصادفة . وهذا التضافر ايضاً هو تفاعل ، حظ . يقولون ان (جول فرن) Jules Verne قد تنبأ بكل شيء. بكل شيء ما عدا السيارة ، على الرغم من أن السيارة اكثر اهمية من الناحية الاجتماعية من الغواصة . لقد كان من الجائز التنبؤ بالتلفزة وبأهميتها ، من بعد المذياع ، ولكن لم يكن من الجائز التنبؤ بثورة وسائل الإعلام الالكترونية ، بعد مجـرد تجارب امثال (هرتز) Hertz و(ماركوني)Marconi . ان نمو علم الإعلام نمو مباغت ، وان الحكومة السوفياتية لم تؤمن به في بادىء الامر . اجل ، ان المصادفة ليست محضـة هنـا : فالمبـاغت التقـني متّـرع ، منظّم ، متفاعل مع امور «يمكن التنبؤ بها» تاريخياً ، كما في سلسلة

(ماركوف) (١)Marcov . ان الاختراعات تترابط . وكذلك تترابط تصميتها الاقتصادية أو السياسية . ولكن للمصادفة ، بالرغم من ذلك ، دوراً أهم من سلسلة (ماركوف) لان حساب احتمالات المقاطع لا يمكن أن نترجمه سلفاً الى أرقام . ان علماء التنبوء بالمستقبل ، وهم يحسبون أن في وسعهم حل الاشكال بتقديم ترجمات شتى ممكنة ، مثل (هـ . كاهن) وفريقه ، انما يجازفون بنسيان المهم في الامر : ان « الغزو » التقني أمر يتعذر التنبوء به كما تعذر التنبوء بالغزو الاسباني لهنود امريكة .

الخلاص بال « نظّامات »

لنقتصر على ذكر كلمات قليلة في صدد حالين ذائعتين : حـــال النظّامات(٢) ، وحال إعلام الجماهير . ان النظّامات ، ودورها القادم في التنظيم الاجتماعي ، تفسح المجال أمام شبه — عقائدية ، أمام أوهام وآمال هاذية ، تستند ، كما هي الحال دوماً ، الى مماثلات زائفة .

لقد قارنوا في الغالب ، منذ كتاب (بركلي) Berkeley ، النظّامة التي تحتوي على مسجلات البرامج ، ومسجلات الاعلام ، ودارات منطقية ، وذاكرات ، وقدرات (ستحقق في المستقبل) تعلم ، وادراك الاشكال ،

---

(١) تتألف هذه السلسلة من توالي سحب حظ مع احتمالات محددة في مقاطع بحسب السحوب السابقة .

(٢) انظر ريمون رويه : السبرنتيك واصل الاعلام (فلاماريون ١٩٦٩) .
R. Ruyer! La cybernétique et l'origine de l'information (Flammarion 1969).

(٣) الادمغة العملاقة او الآلات التي تفكر (نيويورك ١٩٤٩) .
E. C. Berkeley ! Giant Brains, or machines that think (NewYork 1949).

– قارنوها بدماغ . وهذه المقارنة مضلّلة . فالدماغ الانساني يعمل حتماً تبع طرائق مختلفة جداً ، وقد اظهر ذلك (لاشلي) Lashley في مجـــال الذاكرة ، و (كونسكي) Chonsky في مجال الكلام . ويوجد في الدماغ تراكيب ميكانيكية مساعدة تشبه في الواقع تراكيب آلات الاعلام .

ولكن العبث يتمثل في مذهب عضوي ساذج يشبّه الجسم الاجتماعي بالجسد الفردي ، ويتصور أن في وسع نظّامات كبيرة في المستقبل تأليف نوع من دماغ اجتماعي يستخدم شبكة كاملة من النظّامات الاصغر من أجل تسيير جملة عصبية حقيقية من نوع جديد ، تمتد فروعهـــا الى المشاريع ، بل والى المنازل . وفي هذه الصورة تتلقى النظّامات الكبيرة إعلامات ، وتتلقى كذلك طلبات المراكز الفرعية كلها ، وذلك بمنظومات شبيهة بالمنظومات الموجودة سلفاً الآن ، منظومات C.A.T.V (التلفزيون السلكي الذي يتيح للمشاهد ان يختار ويسأل) . وتعمد النظّامات الى هضمها وتتمكـــن من اصدار اوامرهـــا بالسلوك الموائم بعد معرفـــة دقيقة بالواقع . ان « لحاء اجتماعياً » ، وهو دائم الاطلاع والمعرفة بمـــا يجري ، يحسب الافعال الاجتماعية الافضل مواءمة .

اذذاك يصبح من المتعذر قيام عقائديات متحمسة ، ووقوع اخطاء انحياز . وكل شيء يصبح شافاً وموضوعياً . ففي آن واحد توجد مشاركة كلية ، ديمقراطية حقيقية ، ما دامت « الخلايا » الفردية العائلية او الاقليمية تُشعر (المركز) بحاجاتها وبوضعها ، وكذلك يوجد تنسيق موحّد ما دام (المركز) يتنبأ بالارتكاسات الخطرة والمحلية ، ويجعل كل امرىء عـــالماً واعياً بالوضع العام ، ويضيف الى الارادات العمياء الزاماً يقضي بتحليق جيد فوقها وبتوقيت جيد للافعال . وسلفاً تتيح الاحصاءات الاقتصادية

الجيدة أن تتجنب الحكومات أزمات اقتصادية ضخمة بفضل طرائـق مستوحاة من (كينس) Keynes ، وهي طرائق تعمل فور اتقاد « الآلات ذات الغمز المتواتر »(١) . ان استقصاءات (غالوب) Gallup تتيح سلفاً ادراك حركة الرأي العام السياسي منذ ولادته . وان استخدام النظّامات ينيح نوعاً من (الكينسية) أو (الغالوبية) يتميز بشمول عظـيم وفي جميع المجالات . وعندئذٍ يضحي المجتمع اللامتسق أو المتنافر مجتمعاً عضوياً حقاً . ويمّحي اللاانسجام .

ان في المذهب العضوي أو بالحري مذهب الحيوية الاجتماعية بعض الصواب . ولكن المجتمع ، بالتأكيد ، ليس عضوية حية ، وان التشبيه الذي يعتمده المذهب العضوي لا يلبث ان يغدو علم اجتماع صبياني . ويبدو أن من التفاؤل الساذج الوثوق بالنظّامات للقضاء على التعصب وعلى النية السيئة وعلى التخريب . ونحن نجد سلفاً ، في الشؤون الصناعية أو في الادارات التي تستخدم النظّامات ، نجد الاعـلامات التي يترتب على النظّامات هضمها ، ولكن بدون ان تسعى هي ذاتها للحصول عليها ، انما يزيفها في الغالب مستعملو الآلات . وهذه الاعلامات تخشى ، على ما يبدو ، النور الكهربائي (أو الالكتروني) ، وتفضل ظلاً مناسباً .

ان سذاجة أوهام الجمهور حول قدرة النظّامات هي في الغالب سذاجة مذهلة . وقد استمعنا الى متحدث في (الاذاعة — الثقافية) وهو يبدي عجبه لعدم تحديد الباحثين الفرنسي رقم ٥٠ مليون (وفي الواقع الخطـأ المحتمل كان أكثر من ١٠,٠٠٠) في عصرنا هذا ، « عصر النظّامات » . ومن المؤكد ان السذاجة الاعظم تتمثل في الاعتقاد بأن ضروب الكذب

---

(١) Clignotants

العقائدي ستكون محالاً » بفضل النظّامات » . وتبلغ السذاجة ذروتها حين ستحل النظّامات مشكلات الغايات والقيم الاجتماعية .

الماكلوهانية والعقائديات

وعلى العكس ، يقسو ادعياء العلم ، غالباً ، في حكمهم على إعلام الجماهير ، ويصمونه بأنه إعلام « شعبي » ، بدون ان يجرأوا كثيراً على الافصاح عن ذلك .

ان كلمة إعلام الجماهير Media لا تدل بأصلها الاشتقاقي على وسائل الإعلام الذائعة في الناس . ان الهاتف ، وهو حقاً وسيلة تواصل ، انما هو بالحري اداة تجارية أو عائلية . ولكنه لا يكاد يعتبر من وسائل الاعلام الجماهيري . فهذه الوسائل ، بالمعنى الصحيح ، وسائل التأثير الاحدي الاتجاه يجريه قسم من المجتمع على قسم آخر . وقد تترك لهذا القسم الاخير ، في الظاهر ، فرصة ان يقول كلمته احياناً ، ولكنه هو الذي يحتمل في الواقع ضروب العدوى العقائدية ، ولا يكون في مكنته أن يحمي نفسه إلا باغماض العيون وسدّ الآذان — وهذا أمر لا يقوم هو به ، لأن وسائل الاعلام الجماهيري مسلية .

ان نوع العقائدية التي تبث على عجلات الإعلام ، هو هنا ، في تقريب أول ، نوع حيادي . والنقطة المهمة هي ان وسائل إعلام الجماهير تعمد ، مثل الصحافة ، بطبيعتها ذاتها ، الى ترجيح الفكرة — ولا أهمية للصورة ، على الرغم مما يقال ، إلا باعتبارها حاملة افكار — على الواقع ، أو على الافكار الناجمة عن الحياة الواقعية .

ولما كانت وسائل الإعلام الجماهيري ، مثل النظّامات الالكترونية ،

لا الكهربائية ، آلات إعلام ، وليست آلات قدرة ، فان عليها كذلك ألا تكون « انقلابية » مثل آلات القدرة . انها لا تلتقط ينابيع طاقة جديدة . وهي في الواقع تتهدد بأن تفعل ذلك باطراد ، لأنها تلتقط الطاقة الانسانية صناعياً وتتبرعها ، وهذه الطاقة الانسانية قوامها « المعنى » ، لا الكيلوواث ساعة . فاذا أمكن ان تحدث آلات القدرة أضراراً فيزيائية ، فان آلات الإعلام تستطيع إحداث اضرار عقائدية . ولا قيمة للتمييز الذي جاء به (كورنو)(١) بين الاختراعات الميكانيكية ، وهي اختراعات صناعة يدوية ، وبين الاختراعات الحركية ، وهي اختراعات صناعية ، لا قيمة له في صدد المطبعة ، والمطبعة بلا ريب ثورة عظمى ، ولا في صدد الكتابة وتحسيناتها ، ولا في صدد الكلام ذاته ، وهو ان صح القول اختراع « صناعة يدوية » يلتحق بالطاقة الضعيفة الطبيعية ، طاقة زفير الهواء الرئوي .

ان نظرية (ماكلوهان) Macluhan تقلب، بوجه الاجمال، نظرية (كورنو) . يرى (ماكلوهان) ان تقنيات الإعلام ليست أقل ثورية ، بل اكثر ثورية من التقنيات التي تلتقط ينابيع الطاقة الفيزيائية .

وعلى الرغم من ذلك ، فان (ماكلوهان) يعتبر ، من جهة اخرى ، أن وسائل الإعلام الجماهيري مهمة ، لا من حيث الاعلام بالرسائل التي تنقلها ، بل من حيث طرازها التقني ذاته : ان الفكرة ذاتها ، سواء كانت نطقاً أو كتابة ، أو خطاً يدوياً ، أو مضروباً على الآلة الكاتبة ، أو مطبوعة او منسوخة(٢) او مبرقة؛ أو مسموعة في الاذاعة ، أو في الهاتف ، أو ممثلة في التلفزة أو في السينما ، لا تبقى حقاً « نفس الفكرة » ؛ وبالمقابل ،

---

(١) انظر ما سبق .

(٢) Ronéotypé نسبة الى شركة Roneo صانعة آلات النسخ .   (المترجم)

في وسع السينما او الاذاعة « ان تقول » أي شيء ، ولكن ذلك يظــل بالدرجة الاولى نتاجاً سينمائياً أو اذاعياً . وعلى هذا فإن اساليب التواصل هي التي تحدد من الناحية التاريخية الانماط الاساسية للثقافة (وللربــاط الاجتماعي) . فالتواصل والرواية الشفهية ، بدون كتابة ، تعطي الثقافة الغابرة ، والمجتمع القبلي ، ضمن طبيعة تُرى من خلال الاساطــير . والكتابة (الهجائية) تتيح مركزية الدولة التي ترسل مراسيم ، وتتيح في الوقت ذاته الفردية ، وتفريق الانفعالي عن الموضوعي . والمطبعة تنهي سلخ النصوص عن الرواية الشفهية . انها تخلق مؤلفين وجماهير ، رجال دين وعلمانيين ، ثقافة مستقلة استقلالاً ذاتياً ، عقلاً مجرداً وكلياً . ان وسائل الإعلام الجماهيري الالكترونية تعود الى الصورة ، الى الجوقة الحسية ، الى الآني ، الى « الشامل » بأكثر من عودتها الى الكلي ، وهي تيسّر نــزعة قَبَلية جديدة تشمل الكرة الارضية ، وحيث يبدو كل امرىء وكأنه مزود برادار للاحساس بجمهرة الكواكب ، والانخراط في شمول الوجود الجمعي .

ان هذه النظرية صحيحة جزئياً ، بنتيجة مبدأ عام ينص على ان الإحكام التقني للاعضاء ، ولا سيما لاعضاء الإعلام ، في كل عضوية حية ، لا يمكن فصله عن الحياة ، عن واقع غامض مبهم هو عالم « الحياة بذاتها » ، وان التقنيات كانت تقتصر على الاعراب عنه في هذه الحياة الدنيا . ان الحي الذي يكف عن تسجيل اعلامات لا يبقى حياً . والانسان الاصم ، الاعمى ، المشلول ، لا يبقى انساناً . ان مدير مشروع ، اذا حُرم من الهاتف ، وقطع عنه كل إعلام يتصل بمشروعه ، وكل وسيلة تأثير ، لا يبقى مديراً . فاذا كان يحرص على مشروعه فقد يستطيع ايضاً الانتحار . واذا حرمنا مجتمعاً اقتصادياً أو سياسياً ، على التعاقب ، من

وسائله التقنية للتواصل ، بدء من احدثها ، وانتهاء بأقدمها ، فقد بالتعاقب جميع صفات حياته الاجتماعية ، وتقهقر الى حال القبيلة الابتدائية . ان التقنية ، بوجه عام — تقنية التواصل والاعلام اكثر من تقنية — العمل — تبع — الاعلامات ، لا تطيل الحياة ، بل تحولها وتؤلف قوامها .

ولكن نظرية (ماكلوهان) خاطلة أيضاً بسبب ما يقابل المبدأ العام ، القائل : « بأن الحياة لا يمكن عزلها عن وسائلها » . وهذا المقابل يقول : « ان الحياة لا تنحل ، بالرغم من ذلك ، الى وسائلها » . بل انها تسودها على نحو واه بلا ريب ، ولكن الحياة تسود وسائلها ما دامت الوسائل التي ليست لها غاية حيوية لا تكون حتى وسائل وانما ترجع الى حكم ظاهرات فيزيائية خالصة. ان (ماكلوهان) يغفل بصورة منهجية (ذلك أنه لو اعترف بذلك لتضاءل تألق كتبه المتراقص قليلاً) قانوناً معروفاً في علم النفس التجريبي حق المعرفة ، وهو يسود أيضاً الإعلام والسلوك الفاعل : القانون الذي يعبر عنه احياناً في الصيغة التالية : ان النائي يبذ الداني ، والذي يمكن ان نترجمه ايضاً بقولنا : « ان المدلول عليه يمتص الدلالة ، والمشار اليه يبتلع الاشارة » . ان الاعمى يشعر بالعائق بطرف عصاه ، أو حتى « فيما وراء الطرف » ، ولا يخطر في باله ان يقول ان « الرسالة (الشيء المشعور به) هو الوسيط (العصا) » . اننا نكف عن ان نتذكر هل حصلنا على علمنا بنبأ من الانباء عن طريق القراءة ، او الهاتف ، او الصحف ، أو الاذاعة . والحيوان الذي تعلم متاهة يتدبر أمره للوصول الى الهدف ، حتى ولو سددنا أحد اعضائه الحسية أو قيدنا طرفيه . وان الكلب الذي يخضع للمنعكس الشرطي يرتكس ايجابياً ، حتى بازاء منبه لا يخلو من ألم طفيف اذا كان المنبه يعلن « الطعام » . وان شهوته للطعام (تبتلع) الالم .

لقد ظل (ماكلوهان) في مستوى فلسفة القرن الثامن عشر: كانوا آنذاك يدهشون من أن أعمى يستطيع القيام بالهندسة ، وكانوا يظنون ان علمنا ذاته (وليس منظر الاشياء وحسب) قد يتغير بتغير حواسنا . وعلى الرغم مما يقولون ، فان الرسالة ، اجتماعياً مثل فردياً ، أهم من الوسيط ، والغاية والدلالة أهم من الوسائل . وان التراكم شبه الميكانيكي والمعدني للوسائل بفضل التقنية ، هذا التراكم يطرح مشكلة ، يثير توترات ، وخصومات ، وثورات ، تماماً لأن الغايات تريد اعادة تأكيد ذاتها عندما تحرفها تقنية الوسائل .

وانما توجد الخصومة والعصاب عندما يؤكد الوسيط ذاته بذاته على أنه مناف أو مؤلم ، وأنه يضاد المعنى والغاية اللذين يحملهما . واذا كان المنبه (الذي يعني غذاء) مؤلماً جداً ، فان الكلب يشعر بالعصاب . واذا اصبحت عصا الاعمى واخزة ، فقد يشعر الاعمى بالعصا ويكف شعوره بالشيء الملموس . وعلى هذا المنوال تماماً نجد أن السيارة ، وهي تعني ، مبدئياً ، « حرية الذهاب حيث نشاء » ، تنتهي الى « اداة عذاب في المدن أو على الطريق » ، تصبح سبب عصاب ، بنتيجة الخصومة بين الغاية والمعنى من جهة ، وبين الوسيط الذي أمسى « ضراً » . وفي جميع الاحوال تصبح وسواساً ، وتبدو أنها أمست سدى . وهذه هي حال تقنيات الإعلام كلها . فاذا لم أهتم بها ، ولو لم تكن مؤلمة ، وصارت تمر مروراً جانبياً بالنسبة الي ان صح القول ، فانها تصبح وسواساً وتخمة ، بعد ان كانت نافعة أو مسلية .

ان وسائل الاعلام الجماهيري ترهق الاعصاب منذ أن يكف الاستماع اليها أو أن يتعذر الاستماع اليها وفهمها بحسب معناها — كصوت مذياع

نسينا اغلاقه عندما شرعنا نتبادل الحديث في الاسرة . واذذاك تبدو وسائل الاعلام الجماهيري على أنها تثرثر في الفراغ . ان هذه « الاشارات » كلها ، حين يساء امتصاصها ، تثير التخمة وعسر الهضم .

والطبيعة ايضاً تبدو متكلمة بلا انقطاع في نظر الابتدائيين . السماء والنباتات والحيوانات تعلن عن ذاتها ، تقوم بعرض « اعلاني » معبّر ، إن لم نقل إنه دالّ . السماء ذات النجوم « تخفق وترسل اشارات برقية » (١) . وبدل ان تكون الطبيعة غير مهضومة ، فانها تقدم غـــذاء نفسياً مقويـــاً لانها تعبّر عن ذاتها بحسب أساطير تأويل ، وبصورة منسجمة . انها تعلن عن قيم – لا عن سلع تباع – تهم البشرية جمعاء . وعلى العكس تؤلف وسائل الإعلام الجماهيري ، سواء أكانت دعاوة أم لم تكن ، تؤلف بكتلتها كائناً ضخماً لا شكل له ، وتبدو تعبيريته العامة تافهة مزعجة فيما يجاوز دلالتها المتعددة ، ولكن دلالاتها لا تثير كل واحدة منها إلا اهتمام بعض الهـــواة .

ان الباحث عن الصليب المنير لصيدلية عبر اضواء الشارع يجد هذا الصليب نافعاً جداً ومهماً . والباحث عن مطعم يجد الشوكة والملعقة المنيرين نافعين . ولكن جملة أنوار الشارع لا تبدو في نظر كل انسان سوى سديم لا شكل له . وقد يلهو المرء بها ، أو يهيج منها ، بحسب مزاجه (وبالايحاء الذاتي) . ان الشارع التجاري ، بصورة سوية ، « غذاء نفسي » شأنه شأن منظر ريفي ، بل ان كثيرين يفضلون الغذاء النفسي ذا التوابل ، غذاء المدينة ، على الغذاء الطبيعي للاشجار والسهول . ولقد روضت الدعـــاوة المادية للحكم التقني اليوم الاجيال الشابة على الشعور بالحنق والاهتياج .

---

(١) بول كلودل Paul Claudel

وما يزال الشباب خارج الدارات ، وانهم لا يرون إلا سديم اشارات نافلة . وهم يجنحون بصورة عفوية الى اللهو بها : انهم يحبون الاثارة المنبعثة من المدن الكبرى ومن الشارع في المساء . ولكنهم مصابون ، بنتيجة الاقتناع ، بجنون هذاء(١) الصم الذين يرون من حولهم شفاهاً تتحرك بدون أن يقدروا على ادراك معنى الأقوال ، فيعتقدون بوجود مؤامرات تحاك ضدهم . انهم يلجأون الى الاساطير العقائدية التي تصلح لكل مناسبة بغية فك لغز السديم . وهم أشبه بركب مسافرين الى بلد لا يفقهون لغته .

ويزيد هذا الانطباع خطراً الهوس الذائع الماثل في تفريغ معنى الاشارات .

عندما عاد (رولان بارث) Roland Barthes من اليابان اطلق عليها اسم « بلد الاشارات » . وهذا الهوس يعيث فساداً في كل مكان ، ولا سيما في الفن . ان الكاتب لا يبدأ الرواية ، بل يبدأ « الكتابة » . وفي جميع المجالات يظن الظانون ان من الحصافة النظر الى الامور بصورة معكوسة وإبصار « الاشارات » بعيون ذاهلة . وهم يحسبون تعمق الفهم بالاحجام عن الفهم ، بغية النظر الى اداة الفهم . ان الأعمى لم يعد يتقدم في السير ، انه يجلس ، ويتجسس عصاه أو يبريها .

واذا نظرنا بدون اساءة ظن الى النتيجة الاجتماعية لوسائل اعلام الجماهير تأكدنا من ان المعنى ، كما هي الحال السوية ، يبذ طراز النقل . فمن البديهي أن على البنية الاجتماعية ان تتحول بحسب نقل الاعلامات إما بطريق الساعي على قدميه ، أو الفارس ، أو بالبرق المرئي أو الكهربائي ، أو بالتلفزة ، أو بعالم – الرؤية . عندما كان معاصرو (فاوست) Faust

---

(١) Paranoïa

يسمعون بصورة غامضة عن حرب تجري « من جهة تركية » ، وجدوا ان النبأ يجعل جعتهم أطيب وألذ . ولكن مشاهدي التلفزة في العالم يستطيعون جميعاً تتبع سير معركة ، أو عصيان ، أو اغتيال ، واذذاك يوجد ، كما أصاب (ماكلوهان) هذه المرة في قوله ، « انفجار داخلي » ، « تكاثف انفجـــاري » .

ولكن في وسعنا ايضاً ان نحقق ان المهم هو الفكرة ، أو العقائدية ، او المعنى المحمول ، حقيقياً كان أو خاطئاً . ان وسائل النقل الجديدة تغير ايقاعات انتشار الاوبئة ومناطق هذا الانتشار ؛ وقد كانت الكوليرا تصل بالسفن ، وهي اليوم تصل بالطائرة . ولكن الجرثومة المرضية تظل هي هي ، والمرض يظل ذاته ، وايضاً المواطن الموبوءة ذاتها .

ان الاضطرابات الجامعية في (امريكة) وفي (اوربة) ، وتواكبها المتقارب جداً ، لا تفسر بوسائل الإعلام الجماهيري ، باعتبار هذه الوسائل تقنية ، بل تفسر بعدوى الافكار ، أو عدوى الشعارات في أوساط متماثلة ، مع نظام حميتها السيئة ذاته ، وحفظ الصحة العقلية السيء ذاته .

ولم يك لوسائل الإعلام الجماهيري في ذلك سوى دور ضئيل . ان انتقال العقائدية (ومثلاً الاوبئة الماركسية المتعاقبة في فرنسة) ، يجري بوجه خاص بالكتب ، والنشرات ، والمناقشات ، والثرثرة في أوساط يزداد قبولها لها : أوساط الطلاب والمعلمين الذين يجدون مزيداً من الوقت للمناقشة والقراءة اكثر مما يجد العمال ورجال الاعمال ، مزيداً من الوقت ليمذهب بعضهم بعضاً بواسطة هذه المطبعة اليدوية المسماة الآلة الناسخة او بواسطة

الاعلانات المدهونة بواسطة الروسم المحفور(١) او بالكتـــابات على الجدران . اننا نعلم دور « جرائد الحائط » في الثورتين الروسية والصينية .

لقد اسهمت وسائل الإعلام الجماهيري اسهاماً جد قليل في انتشار الماركسية والعقائديات المماثلة انتشاراً متأخراً ، واسهم في ذلك الاسهام الكبير تشكل اوساط جديدة موائمة مرده التقدم التقني في الانتاج (لا في التواصل) . ولا يكاد هذا الانتشار يشبه الا قليلاً الانتشار الضخم الذي اوجعت به الاسطوانة والاذاعة ، بعد لأي ، الموسيقار بين المدرسيين للقرون السالفة . ان (ماركس) او (ماو) لم يفيدا من الاذاعة مثلما أفـــاد (موزارت) Mozart أو (بيتهوفن) Boethoven . وتبذل فئة الموسيقاريين المعاصرين جهداً جباراً اليوم للاستيلاء على الامواج ، وللاستيلاء على آذان الجمهور عبر هذه الامواج . ومن المفيد أن نتحقق من هذا الامر حتى نشاهد هل سيفيد (كزناكيس) Xenakis او (بريو) Berio من وسائل الاعلام الجماهيري مثلما افادا (فيفالدي) Vivaldi و (موزارت) ، أم انهما سيفيدان بوجه خاص من التعليقات المرافقة التي تستخدم ، كما يستخدم ارباب الدعاوة العقائدية ، حججاً مفحمة ، حجج المماثلة ، ويثيرون لدى المستمع رغبته في ان يكون « مطلعاً لا يفوته شيء » .

وفي جميع الاحوال ، الشأن كل الشأن يرجع آخر المطاف الى القيمة ، او على الاقل الى الحركية الداخلية للرسالة . واذا كانت وسائل الإعلام الجماهيري تقترح ، فان الرسائل تتصرف – بل ان الجماعات المهيأة سلفاً هي التي تتصرف .

اننا نعلم النكتة التي تدور حول انسان رغب في ان يهتدي وأحب

(١) Pochoir

بادىء ذي بدء أن يسترشد بقراءات تقية فاشـــترى « الراهبة » (١) لـ (ديدرو) ولما انبأه صديق بخطته احتج قائلاً : « ولكنني اشعر بأنني اهتدي ! » . ان هذه الحكاية تمضي ، فيمـــا يبدو ، عـــلى درب (الماكلوهانية) : الرسالة لا شأن لها . ولكن ذلك لا يصح بالنسبة للوسيط ، بل بالنسبة الى المواقف الجاهزة سلفاً والاوضاع . اننا نعرف عدداً كبيراً من المحافظين الذين يصغون الى اذاعة (فرنسة — الثقافة) ودعاوتها لجميـــع اشكال الفن المتقدم والسياسة المتقدمة ، ولكنهم ، بالرغم من ذلك ، شعروا ، وهم يصغون لاذاعة رسمية ، بأنهم يلقون بالحري دعاوة مجمعية وحكومية . وكذلك فان « رسائل » الجريدة الفلانية ذات الوجه « الجدي » المتزمت فانها عبثاً تحاول ان تكون رسائل مصبوغة بالعنف اليساري ، فان وجه الجريدة ، باعتباره شيئاً جاداً على نحو يجعل قرّاء الجريدة يمتحون منه احياناً وقاراً محافظاً . وعلى الرغم من ذلك يستثنى بعض القراء الاكثر دراية ، أو الذين عركتهم حرارة التجارب على نحو اصبحوا يدركون فيه ، مثل شخص في آثار (بروست) Proust ، « القدمين الاحمرين » فوق وجه الجريدة التي كانوا يحسبون انها « معتدلة » .

ان وسائل الإعلام الجماهيري ليس لها من الشأن إلا على طريقة الاشياء التقنية الاخرى . ان التلفزة تجمع شمل الاسرة في المساء ، كما تجمع السيارة الاسرة لنزهة الاحد . وبهذا الاعتبار تكون وسائل الاعلام الجماهيري عامل استقرار وفكر برجوازي . انها تحمل الرجال على مغادرة المقاهي في وقت مبكر ، وكذلك مغادرة الاجتماعات السياسية ، مغادرة « المنتدى » (٢)

---

(١) La Religieuse

(٢) Forum

كيما يلتحقوا بالسرعة الممكنة بأسرتهم في منظور تسليـــة مريحـــة . وحتى عندما يعرض التلفاز صور العصيان والمغامرات ، فانه يُيسّر ، بطريقته التقنية ، انتصار حياة الاسرة .

ان من المميز أن يرجح الثوريون الشباب الانصراف الى المسرح الحرفي اليدوي ، بعيداً عن وسائل الاعلام الجماهيري ، أو الى السينما الخاصة ، في نوادي هواة السينما ، مثل انصرافهم الى نصف ــ المطبعة الماثلة في الآلة الناسخة .

لا شعور التقنية

من الشطط ان نخشى ان ينجم عن استعمال الهاتف وادارة ازرار المذياع وسائر الاجهزة التقنية ، منذ سن الطفولة ، رجوع عقلية غابرة ورؤية سحرية للطبيعة الفيزيائية . ذلك ان الطفل نفسه ، وان كان لا يفهم بالتفصيل ، مثل جل الراشدين ، مسيرة الاجهزة ، فانه يدرك بصورة حية مفهوم آلة غير سحرية ، قد يصيبها خلل ، ويمكن ان يرممها اخصائي . ولكن الثابت في الامر ان الحضارة التقنية تيسّر لا شعور التقنية و « الوسائل » التقنية . وان المستعمل لا يعنى إلا بنتائج الجهاز وبمردوده ، لا بوسائل صنعه . فالجهاز يعمل أو لا يعمل . أما ما يوجد تحت الغطاء ، أو تحت هياكل السيارات ، فانه يجهله وينساه . والكائن الحي لا يعي سلفـــاً ، وبصورة سوية ، تقنياته الباطنية . اننا لا نعرف كيف نحرّك أطرافنا ، كيف نتكلم ، كيف نهضم ونتنفس ، كيف ينبض قلبنا ؛ وقد بدا اكتشاف الدورة الدموية حدثاً عظيماً . ان الكائن الحي حزمة تقنيات . ولكنه لا يعيش « تقنياً » ، بل يعيش « عاطفياً » . وكذلك فان المجتمع المتسم

بقدر عظيم من التقنية لا يكتسب من جراء ذلك عقلية تقنية ــ بل العكس اصح . انه يبتعد عن الوعي التقني بقدر تجاوزه تقنية الصناعة اليدوية . ان الابتدائيين الذين كانوا يعرفون صنع كل شيء ، وان فلاحي العصر الوسيط الذين كانوا يقدرون على اعادة بناء بيوتهم ، كانوا « تقنيين » اكثر من متحضري اليوم . ينبغي أن يكون المرء معوزاً حتى يكون قادراً على القيام بجميع الاعمال .

ان لا وعي التقنية الخارجية استطالة ، منذ ان يكون الامر ممكناً ، للاوعي التقنية الداخلية . ان احداً تقريباً لم يعد يعرف ، في مجتمع تقنية عالية ، وحيث تبلغ امانة الاجهزة درجة مرضية ، لم يعد يعرف « كيف تعمل الآلة » ، وهذا هو شرط تشغيلها ذاته . ذلك ان من العسير سلفاً أن ينهض كل امرىء بمهنته . انه لا يستطيع الحفاظ على الاهتمام بجملة الاتصالات الانبوبية ، في منزله أو في سيارته ، ولا على مفهومها .

والامر اكثر جلاء بالنسبة لتقنية وسائل الاعلام الجماهيري . فقد يسّرت هذه الوسائل ، بمفارقة ظاهرة ، سيادة الصورة أو شبه ــ الفكرة بدءً من الصورة ، من الجمالي ومن جمالية قليلة الاهتمام جداً بالناحية العقلية ، وكثيرة الاتصاف بالصفة الحسيـــة . المصورون يلتقطون صوراً شمسية ، أو افلاماً ، ويتوخون بها نتائج « سطحية » بالتعريف ، ان لم يتعلق الامر بفلم علمي . ان السينما ليست اختصاص تقنيين ، بل جماليين شباب مولعين بالثورة الثقافية أو السياسية . وتنتهي أساليب الانتاج البارعة بأن تضع بين يدي الجمهور صوراً شمسية رائعة تفعل فعل مخدر يجلب الهلوسة . ان سيادة التقنية لا تؤدي الى رؤية سحرية للطبيعة ، بل الى رؤية سحرية للمجتمع ، أو الى رؤية انطباعية ، أي الى رؤية سطحية جداً

لبعض « النتائج » الاجتماعية ، في لا شعور كل بنية تحتية .

ان الشعور (الدماغي) لدى كائن حي هو أيضاً شعور سطحي بالنسبة للشعور التحتي للآلات العضوية . ولكن الشعور (الدماغي) لا يزعم التدخل في حياة الجسد بحسب افكاره الخاصة . ونحن نعلم انه حين يفعل ذلك يسبب أحوالاً عصابية أو اضطراباتٍ نفسية – جسدية . وان الشعور السطحي للحياة الاجتماعية ، في لا شعور الوسائل التقنية ، يؤدي الى اضطرابات اجتماعية مماثلة ، فكرية – وظيفية . وان الشعور السطحي لا يكف عن ادعاء معرفة ما يجهل . وهو يعوّض دفعة واحدة عن كل ما يجهل بعقائديات شبه – تحليلية وشبه – تفسيرية . ان عشاق السينما « الملتزمة » لا يعرفون الآليّات الاجتماعية ، والقباب الاقتصادية أو الادارية ، كما انهم لا يعرفون علم الضوء الفيزيائي . وان آراءهم لا تصلح الى اكثر من جمالية الصور ، والتقنية الختامية للمخرج . وعلى الرغم من ذلك تجدهم يزعمون اعادة صنع المجتمع كله ، بصورة معكوسة ، أي بدء مما يمكن أن تعلّمه التقنية الختامية أو جمالية الصورة ، وتداولها الانطباعي .

وعلى هذا النحو تيسر وسائل الاعلام الجماهيري العلمية نشر العقائديات بأقل من خلقها عقائديات آخذة بالاتسام بالسطحية ، عقائديات على اساس صور جمالية . ان الماركسية عقائدية ، وليست علماً . ان ماركسية (ماركس) ، تستند ، بالرغم من ذلك ، الى تحليلات فكرية تريد النفوذ الى ماوراء الظواهر . انها تهبط الى أقبية المجتمع لترى كيف تعمل الانابيب الاقتصادية والبنيات التقنية التحتية . وان أتباع الاشتراكية السطحيين والجماليين يكتفون منها بالامساك على الفكرة القائلة بأن من الواجب

« اجتثاث التمويه الصوفي » عن الظواهر الاجتماعية بفضل هذه النظرية التي ينبغي صنعها برمتها . انهم اشبه بالديكارتيين الذين كانوا يقولون ، « بوجه الاجمال » ، : « كل شيء يجري بأشكال وحركات » . انهـــم يقولون : « بوجه الاجمال » : « كل شيء يجري بالرأسمالية وبسيطرة اتحادات الشركات الاحتكارية والمصارف ، بالاستغلال وبالامبريالية » . وعلى هذا النحو يحسبون أنهم يعوضون دفعة واحدة عن عوز الفهم التقني لتفاصيل الآلية الاجتماعية .

وبوجه أخص ، ان ارتكاسهم على صور الدعاوة وعلى تألق منتجات الصناعة الالكترونية ، هو الارتكاس الآتي : « ان هذا كله لا يعني سوى أمر واحد : قدرة المال ، قدرة الرأسمالية » . وتعود العقائدية اسطورة ، لا اسطورة الطبيعة ، بل اسطورة المجتمع ، حيث تُفترض سيادة السحر السيء الذي يجعل منها « منظومة » ، يجعل منها « المؤامرة » الفريـــدة « لقوى المال » .

ولكن هذا أمر مسرف جداً بالنسبة للاشعور الاجيال التي تنشأ في ظل السهولة التقنية ، وهو لا شعور متزايد دوماً ، هذه الاجيال التي لم تسهم في الغزو ، وانما ولدت في البلاد التي تمّ غزوها من قبل . ان العقائديين كفوا عن التحليل ، ولو بصورة اجمالية . وهم يرفضون ما يرفضون ، ويطرحون الانطباع بأنه لا ينبغي حتى ترميم الآلية الاجتماعية كلها ، ولا اصلاحها بل كسرها ، وان الشعور الطافي بعد الكسر سيظل موجوداً ، ولكن ألوانه ستصبح أكثر مواءمة ولذة .

يحسب الاطفال أن ارادتهم هي التي تعطف ذراعهم ، وأن هـــذا الانعطاف ، من ثم ، ينفخ عضلاتهم ذات الرأسين . وهم يحسبون كذلك

أن السرفة مجرد جلد اخضر يحتوي في داخله على لب لا شكل له . ولا يكاد الابتدائيون يعرفون الجسد، وهم لا يعرفون إلا «الروح »، والروح تتنزه بحرية ، وفي وسعها الخروج من الجسد ، والتأثير فيه . وكذلك الصوفيون والجماليون الشباب الذين لا يعرفون تشريح الجسد الاجتماعي . انهم يحسبون أن في وسع الناس أن يعيشوا كلهم في مستوى علم الجمال والتخيل ، وفي التحقيق السحري للاماني والرغبات . وحين يتسنم « التخيل سدة الحكم » ينعطف الذراع بدون الكيمياء والفيزيولوجيا المعقدة لعضلة ذات الرأسين . ويتظاهر « علماء اجتماع » بأنهم يعجبون بهم ، ويشجعونهم في أوهامهم . وسواء أكان الجماليون سينمائيين أم مخططي موعد فانهم يرون المجتمع الاقتصادي والسياسي كما يرى ابتدائيو (لينهارت) Leenhardt الجسد، يرونه مجرد حامل ، أي حامل ، لا « روح » . و ال « روح » تعني « العالم الحقيقي » ، المسرح ، السينما ، الومضات الفكرية للاحتفال الشعبي (وهم محركوه) ، الزخارف ، « الاشارات » التي لن تنم عن « قدرة المال » بل عن « قدرة الثقافة » التي أضحت متحررة في آخر المطاف ، وكأنها « روح خارجية » .

انهم يثابرون على الظن بأنهم ماركسيون، في حين انهم بكل دقة في الطرف النقيض للماركسية ، وانهم انقلبوا قافلين الى الاشكال الاكثر صبيانية من الطوبائية « المثالية » والسحرية .

الفصل الثاني

القناع العلمي للعقائديات

عمد الناس دوماً ، في جميع الازمنة ، الى اسباغ هيأة العلم السائد على ما يصنعه الفلاسفة أو العقائديون . والانسان ذاته ، وهو عالم حقيقي في نقطة ، يصنع في الغالب ما يشبه — العلم في المجالات الواسعة : لقد اسبغ (افلاطون) رداء هندسياً وحسابياً هندسياً على مبتكراته الكونيـــة والسياسية . وفي القرن السابع عشر ، كان (هوبز) Hobbes و (سبينوزا) Spinoza يقدمان الاهواء الانسانية والاوضاع السياسية في حلة كتـــاب ميكانيك أو هندسة . وكانوا يثيرون دهشة معاصريهم بالشكل « العلمي » على نحو أعظم من اثارتها بموضوع افكارهم . وقليل من المفكرين ، بعد (نيوتن) Newton ، لم يبحثوا عن قوانين الجاذبية، ولم يرغبوا في تأليف « منظومة العالم الاخلاقي » . وقد قدم (فوريه) Fourier نفسه على انه (نيوتن) السياسة . وقد اكتشف مبدأ اتساقها . وقدمت (السان سيمونية) ذاتها على انها « علم الجاذبية الكونية » . وما من اشتراكية إلا وتقدم نفسها على انها علمية : (فوريه) ، (سان سيمون) ، (برودون) ، وكذلك (ماركس) و (انجلز) Engels . وهم ليسوا طوبائيين إلاّ في نظر اعدائهم ، وهؤلاء يعاملهم « علميون » آخرون على انهم — بدورهم — طوبائيون .

لقد حل (دارون) Darwin محل (نيوتن) بعد عـــام ١٨٥٩ ، أو بالحري ، اضيف الى (نيوتن) ، على نحو لا ندري كيف تم ، ولكن الامر لا يقف عند هذا الحد البسيط . فقد رأى (انجلز) أن (ماركس) هو « دارون العلوم الاجتماعية » الذي اكتشف قانون تطور التاريخ الانساني

مثلما اكتشف (دارون) قانون تطور الطبيعة العضوية . وقـد رغب (ماركس) باهداء المجلد الاول من « رأس المال » الى (دارون) الذي رفض بصورة مهذبة ذاك الشرف .

ومن جهة اخرى ، كان (ماركس) متردداً في شأن (دارون) . كان مثل (صموئيل بتلر) يدرك تشابه مفهوم العضو البيولوجي ومفهوم وسيلة الانتاج » التقني . ان « آلات » عصر مضى هي « البقايا العظمية التي يستخدمها علم المستحاثات ليعيد تأليف حياة الانواع المنقرضة » . وهذا الامر كان أقرب الى (لامارك) Lamarck منه الى (دارون) .

واليوم يوضع الإعلام في الينابيع كلها ، أو بالحري انه « المَرَق » المستخدم في جميع « البحوث » السياسية او البيداغوجية أو الجمالية . والفارق بين البارحة واليوم هو أن جاه العلم قد ازداد زيادة مذهلة . ففي الماضي كان « المتأدبون » يقاومون قليلاً ، وكان في وسعهم الاعتزاز بأنفسهم في بعض الاحيان . واليوم نجد أن ارهاب « العلمية » لا يكاد يُقاوم . انه ارهاب يسيطر على السياسة وعلى الفن وعلى الابداع بوجه عام (أو « الابتكارية ») ، وليس ثمة مجال للهزء من « معامل الابداع » عندما تسيطر عليها شخصيات مرموقة ، وهي تتصرف بآلات باهظة التكاليف ، وتنقل بين الفينة والفينة « لمعاً » علمية مما تهتم به الى الجمهور والى الوزراء .

ان « علم الحب » الذي يدعو اليه (شارل كروس) Charles Gros مع محاول البوتاس المخفي واوراق دوار الشمس المخفية ، ومع مسجل نبضات القلب تحت الوسادة ، ما يزال علماً للتفكه . وما يزال في وسع (ريمون كينو) Raymond Queneau ان يسمح لنفسه بالابتسامة في كتابه

« اوليبون » (مشغل الادب الكامن) (١) . ولكن التهكم يزداد ندرة .
وقد أصبحت البيداغوجيا علمية ما دامت تتحدث عن « آلات التعليم » .
وكذلك الموسيقى ما دامت تستخدم آلات التأليف . ان من يقول « آلة »
يقول « علماً » . ومن يقول : « حساب بالنظّامة » يقول : « علماً » .
وقد تلا الثورةَ العلمية والثورة السياسية ثورة هي الثورة — السياسيـــة —
المحسوبة — علمياً (او في « العلمية المذهبية ») (٢) .

وفيما يجاوز هذه السذاجات التي تذكرنا « بعلم — النجوم — ما دام — يقوم — بحسابات — بالنظّامات » ، توجد « لعبة العلم » ، استدلال بالمماثلة على نحو صبياني مماثل تماماً ، ولكن هذه اللعبة تحدث انطبـــاع الاهمية . فنحن نلغى في مسيرة العلوم كلها ، بعد مرحلة قصيرة يقتصر الباحثون فيها على ملاحظة الحوادث ملاحظة جيدة ، مثل (غاليلـــه) Galilée وسطحه المائـــل ، أو (توريشللي) Torricelli ومضخـــاته الفلورنسية ، نلفى انتقالاً سريعاً الى تحليلات مدهشة . انهم يمضون الى أبعد من « الجلي » ؛ يمضون الى الخادع ، أو الى المضطرب ، ويكتشفون « شيئاً كامناً » يشد أزر الواقع ويفسر « الجلي » بتصحيح نظرة الحس المشترك . ان علم الفلك النيوتوني يخرج مباشرة من (غاليله) . وبالرغم من ذلك ، ما اعظم المباغتة ، سلفاً ، في ان تعلم ، وان تحقق على وجـــه دقيق جداً ، ان القمر في حال سقوط دائم على الارض ، بحركة متسارعة . وكذلك ، يا لها من مفاجأة ان نعلم اننا نتحمل ضغطاً جوياً قدره كيلوغرام

---

(١) تلخص كلمة (اوليبو) اوائل الكلمات الفرنسية الملمع الى معناها :
Oulipo (ouvroir de littérature potentielle)

(٢) Scientificité

واحد في السنتمتر المربع الواحد .

ان هذه المسيرة كلية على نحو يجعل من الجائز اعتبارها بحق انها معيار ، وإن كان سلبياً ، للعلم الحقيقي . فلو زعمت نظرية انها علمية واقتصرت على الكلام بصورة معقدة عما كان الناس يعرفونه من قبل ، قام زعم بأنها شبـــه ــ علم . وقد طبق (كورنو) ، مثلاً ، هذا المعيار السلبي على علم النفس الانتقائي (الكوزاني) Cousinien (الذي كان يزعم انه « علم ») : كان يقول : « اظهر لي فصلاً واحداً يصحح فيه علم النفس الحس المشترك فعل علم الفلك ، أصدق أن علم النفس الذي تدعو اليه هو شيء آخر غير تمرين خطابي » .

والعقائديات التي تريد أن تهب ذاتها ظاهر العلوم الحقيقية تستخدم المعيار ذاته ، ولكن بعد أن تعكسه تضليلاً . انها اولاً تخترع منظومة تأويل تبدو مدهشة جداً ، بعيدة جداً عن الممكن ؛ ثم تطبقها على الحوادث « الجلية » تطبيقاً منهجياً . وعندئذ تستطيع التبجح بـ « علميتها المذهبية » ما دامت تصحح نظرة الحس المشترك ، كما تقول ، مثلما يفعل علم الفلك او الفيزياء . ان في وسع علماء التحليل النفسي الاجابة باعتزاز عن سؤال (كورنو) : « انهم يصححون نظرة الحس المشترك ، بل انهم لا يفعلون غير ذلك » . وكذلك الماركسية التي تتيح النفاذ الى اعماق المزاعم المثالية حين تكشف النقاب عن سر حركات هذه المزاعم كلها ، ولا يبقى فيها أي اثر الهي مثل مسيرة القمر والكواكب . ولن يبقى التاريخ ، او علم الاجتماع ؛ ذاك التاريخ الذي يجهد لمشاهدة الوقائع بدقة وبالاستناد الى وثائق واحصاءات دقيقة ، وبدون فكرة مسبقة ، ويسعى لتحليلها معتمداً صوراً اختزالية يمكن دوماً اعادة النظر فيها . بل سيكون « التاريخ المادي

النزعة » ، لانه وحده « يوضع » ، على طريقة علم متقدم .

ولا يكتفي العقائديون بالتستر وراء مسوح العلماء ، بل انهم يقدمون انفسهم على انهم « وحدهم هم العلماء الحقيقيون » ، ويتهمون بالسطحية المذهبية اولئك الذين يرفضون مجاراتهم والذين يعملون على إحكام بعض فصول علمية حقاً من الاقتصاد أو من علم الاجتماع . وقد وُصمت دراسات علماء الاقتصاد الجادين ،مثل دراسات (صامولسن) Samuelson بانها سطحية وبرجوازية . واعلن عن (بياجه) Piaget بأنه سطحي ، في دراساته لعلم نفس الطفل لانه لايتحلى تحلياً كافياً بالتحليل النفسي وكذلك كل نقد أدبي لا يعتمد الاسرار شبه العلمية — العلمية الذائعة ولا يرى الصراع الطبقي ، في كتاب (رابليه) Rablais : (المرافعون » (١) أو في « الاوذيسية » (٢) .

لقد حاول علماء تحليل نفسي نزع الثقة عن التأويلات العضوية للامراض النفسية وللجنون — وهم في هذا لا يقلون خطراً على الصحة العامة من خطر (رفاق يهوه)(٣) . اما الماركسيون ، بعقيدتهم القائلة بأن الحرب — هي دوماً — ناجمة — عن المصالح — الاقتصادية ، فأنهم أكثر ضرراً لانهم بذلك يحولون الانتباه عن الحروب التي تنشأ عن التعصب السياسي . وثمة قانون (غريشام) Gresham يعمل عندما يتعايش « العلم » العقائدي مع العلم الصحيح . ان العلم الزائف يطرد ، من جراء سهولة تضخمه ، العلم الصحيح كما تطرد النقود السيئة النقود الجيدة . (ولكننا ، لسوء الحظ ، لانحافظ على العلم

---

(١) Plaid [illegible]

(٢) [illegible]

(٣) Compagnon [illegible]

الحقيقي في خزن) ؟

وعلينا ألا ننسى أن علماء حقيقيين يسهمون في طرح عقائديات علمية . فمما يبعث الثمالة بعد تعب عمل مخبري مشاق الاسترخاء أمام جمهور غفير ولعب لعبة « الحكيم العجوز » واللهو بالحديث عن الحلم بمجتمع يؤمن كله بالطريقة العلمية ، ثم بالنظر الى هذا الحلم بعين الجد .

ان عادات العلماء المهنية هي في الغالب عادات ضارة عندما تنقل الى مجالات اخرى. من ذلك بصورة مميزة مثل اعتياد العلماء « مطاردة المصادرات اللامرئية » و« المزاودة في التأملية الجذرية » . ان الاقدام على هذه المطاردة هو تعريف العبقرية العلمية بالذات . اجل لقد وجب توافر الاقدام من اجل رفض سكون الكرة الارضية ، وال (فوق) وال (تحت) المطلقين ، والمحايثة المطلقة للمسافة ، والتبدد الظاهري للطاقة ، الخ بل ان في الفيزياء الذرية بخاصة ، وفي علم الحياة الجزيئي ايضاً ، معادلاً طريفاً لقول اللاهوت القديم : «أؤمن لان ذلك سخيف» (١). ويميل العلماء للنظر الى فرضية من الفرضيات باهتمام اعظم كلما عظمت غرابتها وعظم صدمها للحس المشترك . فهم يقولون (على حق) ان « الاساسي » ينبغي ان يكون جد مختلف عن الاشياء التي ألفناها. ومن هنا نجاح « ثقوب » « ديراك » Dirac و« الطاقة السلبية » و« الزمن المعكوس » عند فينمان Feynman وال « التماثل النووي » والشحنة — المفرطة (٢) (المسمى « غرابة » بحق) .

---

(١) Credo quia absurdum

(٢) Spin isotopique اخضاع البروتون والنترون داخل نواة الذرة لقوى نووية متماثلة . فيشاهد انهما يؤلفان شكلين من جزئين واحد هو النيكليون Nucléon (المترجم)

(٣) Hyper—Charge

وتبقى كلمة الفصل في العلم طبعاً للتأييد التجريبي (وعلى هذا فقد أيدت التجربة « فينمان » بأكثر من تأييدها « ديراك ») .

الحس المشترك، لا تجربة المخبر، هو الذي يكبح جماح العقل النظري في المواد الاجتماعية . كان (هيوم) Hume ، مثل (ساد Sade – ولكن بدون جنون ، وبخاصة مع ذكاء اعظم لانه كان يستخلص من ذلك نتائج متعارضة – كان يرى بجلاء ان العقل لا يستطيع ، مثلاً ، ان يعتبر السفاح وقتل الوالدين جريمة (ما دامت شجرة الصنوبر التي تنبت تحت قدم المولد الذي قدم البذرة وتقتل اباها بدون اجرام) أو انه لا يستطيع اعتبار داء العرض الجنسي جنحة (ما دامت نباتات الازهـــار تقترف ذلك بشاعرية) .

كان (ديكا) Degas يعرض ، بدون أي خطر ، جائزة مليون لمن يستطيع الادلاء ببرهان عقلي على ان (الجوكندا) تحفة فنية . وكذلك يمكننـــا ، بدون خطر ، أن نعرض جائزة مليون لمن يستطيع البرهان العقلي على أن من الواجب منع أكل لحوم البشر . بل ان من السهل امتداح ذلك على أنه عادة تقية واقتصادية . واذذاك يقول انسان سليم ان ثمة اذن مجالات ينبغي على « العقل البرهاني » أن يخرس فيها . ولكن العقائدي ، إن كان مبطناً بمتعاظم ، أو بديماغوجي ، أو بأحمق، يشرع بالدفاع عن أكل لحوم البشر ، أو عن السفاح ، حتى يظهر بمظهر العقل الاعلى . وقد كان (موريللي) Morelly يقول سلفاً في القرن الثامن عشر : ان قبول السفاح كان « حجر الاساس في اتصاف الفكر بأنه فلسفي حقاً » .

كان (انشتين) Einstein ، من بعد مصلح الفيزياء الخجول (اورنز)

Lorenz، يقول مثلما كان (ساد) يخاطب الفرنسيين : « ايها الفيزيائيون، ابذلوا مزيداً من الجهد ! » . ولكن النبوغ في مجال النظرية المحضة قد يكون جنوناً في مجالات اخرى . الجرأة الفكرية تصبح تهوراً عملياً . وان « فلسفة كلا » تصبح « عدمية اتّباعية » .

أتريدون اصلاح مجتمع صناعي ، اختراع وسائل اخرى لرفع مستوى الحياة ؟ « ولكن لماذا تفترضون ان من النافع رفع مستوى الحيـــاة ؟ » . أتريدون اصلاح العادات الخلقية ؟ « ولكن اعترفوا اذن ان العادات الخلقية هي بوجه عام عادات سدى » . أتريدون محو حكم الاعدام ؟ « ولكن لماذا لا تمحون ايضاً السجون وسائر العقوبات ؟ » . لقد حذفتم التشريع ضد الجنسية المثلية ؟ « ولكن لماذا لا تقرون زواج ذوي الجنسية المثلية ، أو الزواج الرباعي ، أو السداسي ؟» .

ان الفكر المنهجي قد يكون اسوأ من الفكر المنحاز . وان « مطاردة المصادرات » تصبح هياجاً دماغياً لا يلبث ان يضحي زوبعة وقد تجرف « الجذرية النظرية » ، في غضون سنوات قليلة، الفن والدين والمؤسسات الاجتماعية . لماذا يؤمن الموسيقار بالسلّم الموسيقي ؟ بالاصوات بأكثر من الضجيج ؟ ما فائدة قاعات العزف الموسيقي ؟ لماذا لا تعزف الموسيقى في قطارات المدن ؟ ما نفع المسارح ؟ هل ثمة اسخف من الجلوس في مقعد خال حيال الممثلين ؟ ما فائدة الزخارف المعمارية ؟ أليست سخيفة سخف الوشم على الجلد ؟ لماذا نكتب ؟ لماذا نصلح الكنيسة ؟ ما فائدة الكنيسة ؟ يقال : مات الله . فلم لا يقال : مات الانسان ؟ » الخ . ان الفكـــرة الوحيدة التي لا تراود ذهن صيادي المصادرات البواسل هي الفكرة الآتية : « لماذا نفترض أن قانون تعمق المعرفة النظرية ينطبق كما هو على الفن وعلى

السياسة وعلى الحياة ؟ لماذا ننظر الى العلماء والى طرائقهم نظرتنا الى سادة عالميين ولا ننظر بالحري كذلك الى الرياضيين أو الى الصناعيين أو الى محبي النوع البشري؟. لماذا نعمّم طرائق لا قيمة لها إلا في مجال محدّد هو مجال النظرية التأملية ؟ » .

وكما حملت الحكومات انفسها على الرضى بتضخم نقدي يسمى التضخم الترويجي حتى توجل الصعاب وتخفف حدة التوتر الاجتماعي وتيسّر الاعمال التجارية بصورة موقتة ، على حساب الدائنين ، كذلك يرضى محافظون ، واصحاب الريع ، كرهاً — وهم يزينون استسلامهم باسم الليبرالية — يرضون بتضخم عقائدي « ترويجي » . انهم لا يعبسون عندما يمضي طبقة المثقفين ، أبعد فأبعد ، في نشاطها في الدعاوة لأفكار مجنونة . بل انهم يوافقون على ذلك « بيصمتهم » ، وينحازون الى جانب الثوريين ضد المحافظين — ويعمّدون هؤلاء باسم « الرجعيين » . ان الحكام ، اذ يسهمون في التضخم العقائدي يأملون أن ينزعوا من خصومهم سلاحهم الى الابد . ولكن التضخم العقائدي يهدد بجرفهم بأكثر من خطر التضخم النقدي .

الا ان الشغف بالعقائديات ذات المظهر العلمي ، وهو شغف وسواس في الحقيقة ، يصبح تنازلاً عن الحس المشترك . ان كبار من يفكّون الالغاز ، (نيتشه) ، (فرويد) Freud ، (ماركس) ، قد شحذوا ، بلا ريب ، شعور الذين قد يكونون واعين حقاً بدونهم ، الذين كان في مكنتهم ان يستبقوهم ، وأن يتنبأوا بما يتنبأون به حتى بدون مذهبهم . ولكن من الثابت ثبوتاً اعظم أن كبار من يفكّون الالغاز قد أثاروا الغموض لدى عدد اكبر من الناس حين زودوهم بتفسيرات قادرة على تفسير كل شيء .

وعندما لا يكون الانسان مزوداً بحس نفسي سليم ، يزداد حمقه حين يضطرب عبر مفردات التحليل النفسي . وعندما تقل قدرة المرء على ادراك القوانين الاقتصادية الاولية تأتي الماركسية وتجعله اعمى نهائياً ، وتحجب عنه نهائياً اي امكان نفاذ الى التجربة . لقد انتهى مدّ العقائديات الاسود بتجميد اقلام العقول التافهة (وهي لم تحلّق البتة الى ارتفاع كبير) .

ان القسم العلمي حقاً — أي المؤيد بالتجريب — في آثار (فرويد) ، (ماركس) ، (غوبينو) ، (موراس) ، (نيتشه) ، (ماركوز) ، قسم محدود جداً . ولكن آثارهم ، فوق ذلك ، عند ارجاعها الى هذا القسم الضئيل تكف عن اثارة اهتمام أي انسان . ذلك ان القسم الذي كان يحظى بالعناية انما هو ، بوجه الدقة ، القسم الخيالي والاسطوري . ان الفيزياء مدهشة لانها مؤيدة بالتجربة . وبهذا الاعتبار ، تكون الفيزياء الارسطاطاليسية الزائفة شيئاً مبتذلاً . وعلى العكس ، ان علم النفس العقائدي ، وعلم الاجتماع العقائدي مبتذلان في القسم الصغير المؤيد بالتجريب ، ولكنهما مدهشان وآسران في الاضافات الاسطورية .

ان « الانفصام الابستمولوجي » — مع عالم الحس المشترك، من اجل بلوغ « عالم جديد » هو عالم العلم — يعمل عملاً معكوساً . ان « الانفصام الابستمولوجي » يتيح البقاء داخل النظرية ، كما في كرة من زجاج .

هناك مجالات يستمر فيها « أمير »(١) (مكيافيلي) ، و « رجل البلاط »(٢) لـ (بالتازار كراسيان) Balthasar Gracian ، بل وحتى « حكايات »(٣) (لافونتين) La Pontaine ، تستمر على ان تكون

---

(١) Le prince

(٢) L'homme de Cour

(٣) Fables

واقعية النزعة (وعلمية بصورة اصح) اكثر من النظريات والعقائديات العلمية التي تخفي الواقع وراء الكلمات ولا تقترب من الواقع - كما يقال - الا بسلاح مفاهيم أسيء هضمها، مفاهيم متعالمة مع قفازات من المعدن تجعل من المحال أن يشعر المرء بأي شيء.

أن يسند الحكم الى العلماء (والى «العارفين») يمثل فكرة قديمة، زائفة - يرجع تاريخها الى (افلاطون) - وهي تظهر بصورة دورية. وقد آمن بها (سان سيمون) و (كونت). ولا ريب في أنهما خصّا العلماء بالسلطة الروحية الوحيدة، وأبقيا للصناعيين وارباب المصارف السلطة الزمنية.

وقد وجب ان يحل العلماء والفلاسفة محل الكهنة. ووجب عليهم تنظيم عواطف الناس وجمع كلمتهم بالعمل المشترك. وقد ترتب عليهم اعادة التسلسل القيمي الزمني مسيرته الاولى بالحيلولة دون أن تسود الاسرة وحب الذات وحدهما.

لقد لاحظ (ريمون آرون) ان السلطة الروحية لم تكن البتة في التاريخ بين يدي العلماء والفلاسفة، بل تحت تصرف الكنائس وحدها وبين يدي العقائديات المتسترة احياناً خلف أقنعة مذاهب علمية، ولكنها في الواقع دوماً عقائديات سياسية في نظر الحكام، وعقائديات شبه دينية في نظر المحكومين (١).

ان العلماء غير مؤهلين ابداً لتشكيل ارستقراطية اجتماعية، سواء عندما يكونون لا يزالون هواة، كما هي الحال في القرن السابع عشر، أو عندما يؤلفون طبقة تعيش من الوظيفة. انهم لا يملكون حساً عفوياً

---

(١) ريمون آرون: مراحل الفكر الاجتماعي - (كاليمار) ص ٩٥.

بمسؤولياتهم الاجتماعية . أو انهم ينظرون عندئذٍ الى بعد قصي ، ويرون من مكان جد بعيد (البشرية عام ٣٠٠٠) — باقتصارهم على فضح اضرار من نوع فيزيائي او بادانتهم عادات اجتماعية لا يمكن اجتنابها ابـــداً واعتبارها عادات لا علمية وهي لا تنافي العقل إلا في الظاهر — ان نظرتهم القصوى تجعل لتحذيراتهم وتصريحاتهم الدورية قواماً ادنى ، وبجوعاً أضأل من قوام وبجوع نداءات (البابا) « ضد الاثرة » ، و « من اجـــل المحبة ، والتجرد ، والعدل » .

ولكن في وسعهم ، بالرغم من ذلك ، ان يحظوا مثلما كان (البابا) يحظى سابقاً بنجوع اعظم عندما يحضون على « حرب مقدســـة » ، لا تستهدف الكفار أو الوثنيين ، كما كانت الحال ، بل تستهدف وثنيي « العقل العلمي » . ولكننا نجدهم عندئذٍ يمضون على درب العقائديات السياسية القائمة من قبل ، ويكتفون ، وبسذاجة في بعض الاحيان ، بمنح كفالتهم لمشروعات اقل تجرداً مما يحسبون .

وفي مرحلة أهدأ ، ينزلق العلماء في عقائدية الخلاص بالتربية — بل بالتعليم — المعمّمة . يحسبون انه يكفي الإعلام ، أو التعريف ، أو تبديل طرق التفكير ، حتّى نصلح سبل العمل . انهم يحسبون أن « العقلية » تسيطر على السجيّة ، وتسيطر بصورة غير مباشرة على المؤسسات الاجتماعية . انهم يغضبون من ضروب اللااتساق واللامنطق في الحياة الاجتماعية ، بدون أن يميزوا تمييزاً جلياً اللااتساق في مجال ، واللااتساق الملازم لكثرة مختلف المجالات ، وهي كثرة حتمية ونافعة . انهم يحسبون أن كتاب الصلاة الوضعية أو العلمية سينهض ، على أحسن وجه ، بدور كتاب الصلاة الدينية ، وان نوعاً من « العلمية المذهبية » الكلية سيقوم بدور وحدة الايمان .

ان التاريخ يظهر بجلاء ان الوحدة « العقلية » لا تقود الى وحدة المجتمع العضوية ، وأن مجتمعات « عضوية » ، على العكس ، تتواءم أحسن المواءمة مع « عقليات » متنوعة جداً ، أو انها ، في احتمال اكبر ، تتطلب تلك « العقليات » المتنوعة جداً . أي شيء اعظم لااتساقاً من « العقلية » في عصر الامبراطورية الرومانية الذهبي ، أو في انكلتره في القرن التاسع عشر – وقد تعايشت فيها اعتقادات دينية متخلفة عن النقد الفلسفي الالماني وأساطير اجتماعية غابرة، تعايشت كلها مع الفكر الذرائعي ومع التقنيـــة العلمية ؟ ان فكر العصر الوسيط يتفق خير اتفاق في الغالب ، في البلاد الشمالية ، مع مذهب المستقبل التقني ، في حين أن « المنطق » اللاتيني ينتج ، بوجه خاص ، اضطراب من يراوح في مكانه .

ولئن كان القرن السابع عشر « قرن النبوغ » في العلوم ، فقد حقق ذلك بدون العقلية الوضعية أو العلمية . وربما لانه لم يكن يتحلى بها .

ان الغلو في تقدير الانتظام النظري في المجتمع يرجع ، لدى العلميين ، الى عادة مهنية . فالعلم يبحث عن قوانين عامة ، ومبادىء كلية ، ترضخ لها الحوادث بأسرها ، وتتبدد الاحوال الفردية . إن هوى الانتظام هو هوى التطرف ، الشذوذ ، اللذين تصاب بهما هذه الشهوة المفيدة المتطلعة الى النظام الذي يوجد في أصل كل علم . لقد لاحظ (ا . هوكسلي A. Huxley « ان هذا الغلو يؤلف مع الولع بالسلطة ينبوع كل طغيان ، كل حشد تعسفي » . وفي وسعنا ان نلمس هذا الولع بما هو « نظري » وهو يعمل في جل الطوبائيات ، والطوبائيات نتيجة هوى في الغالب اكثر منها مجرد هوى سياسي أو هوى محبة النوع البشري . وهذا ما يجعل العوالم الطوبائية ، وهي تناظرية ، شمولية ، لاانسانية ، يجعلها اشبه بحلم مهندس معماري

أو مخطـط مدن مصـاب بالانفصـام ، في « اتلانتيـد » (١) الافلاطونية ، في « مدينة الشمس »(٢) لـ (كامبانيلا) Campanella ، في « ايكاريا »(٣) لـ (كابت) Cabet ، في « امريكة الماركسيـة » لـ (بلاّمي) Bellamy ، في الكواكب — الكابوسية — للعلم — الخيالي .

لقد أصبح تخطيط المدن اليوم ملعباً ممتازاً للعقائديين المتّسمين بآن واحد بأنهم جماليون وعلميون(٤) . انهم لم يبذوا الى الآن — بالكلام — سوى « بحث نظري عن المشكلات المعمارية الثورية » ، ضد « المجال الحيوي » الذي تجسده ، في نظرهم ، المدن الحقيقية حيث « تطرد الطبقة الاجتماعية المستخدمة والمستغلة والحاكمة ، العمل » ، طرد نفاق إلى حد كبير أو صغير . واذ يعمدون الى التنفيذ يحققون مجموعات شديدة القبح جداً ، يتعذر العيش فيها نفسياً بأكثر من قبح ورداءة المراكز القديمة حيث يستمر بصورة دائمة تقريباً وجود عدد اكبر من الأبنية المريحة . وان المهندسين المعماريين ومخططي المدن يصيبون نجاحاً اعظم لو أنهم رضوا بمحاكـاة الانتاجات الاكثر عضوية التي خلفها الماضي ، أو لو انهم اصلحوهـا بترميمها . ولكن ذلك بوجه الدقة ما يعجز عنه الذكاء « المتعلق بالبحث النظري » أكثر ما يعجز . ان الاعتزاز الاعتقادي يفضّل الثورة على الاصلاح ، يفضّل الصفحات البيضاء على تخوم أسيء تحديدها ، يفضّل النظام العقلي

(١) Atlantide

(٢) Cité du Soleil

(٣) Icarie

(٤) انظر هنري لوفيفر H. Lefebvre ، في امكنة شتى من آثاره . لقد اصبح تخطيط المدن اليوم العوبة فكرية مسلية مثل علم الافلام .

على النظام العضوي ، يفضل الانفصال على الاستمرار .

●

ان الوصف المتهكم في « رحلات كوليفر »(١) لـ (لابوتا) Laputa (الجزيرة الطائرة) و لـ (لاكادو) Lagado (بمجمعها العلمي) يستشهد به احياناً على انه مثل على الاخطاء التي قد يقع فيها انسان ذكي بنتيجة نزعة محافظة عمياء . والظاهر أن (سويفت) Swift يسخر من النيوتونيين ومن جاذبية (بايل) Boyle و (الجمعية الملكية) Royal Society. فاذا اعدنا قراءة هذه الفصول من (كوليفر) ادركنا أن (سويفت) لا يسخر من العلم ولا من التقنية التي يطبقها ممارسون ، بل من العقائديين المخططين ، من شبه ـ العلم باعتباره وسيلة لايهام العامة . ان (لابوتا) هي الجنـــة المضحكة لصانعي المشاريع . الدور فيها مبنية اسوأ بناء ، لان « هؤلاء المهندسين العظام يحتقرون الهندسة العملية ، ويعتبرونها عامية ويدوية . انهم يعطون البنّاءين تعليمات لا تطيق افهامهم تعقدها المسرف ، وهذا سبب آلاف الاخطاء » . ان ايّاً من المشاريع الكبرى لما يبلغ درجة الإحكام الصحيح ، وتبقى الارض ، بانتظار ذلك ، بوراً ، وتبقى البيوت خراباً ، ويبقى الشعب محروماً من الغذاء . ولكن بدل ان يتراجع هؤلاء المخطّطون ، نجدهم يزدادون حماساً لاتباع نهجهم ، يدفعهم الى ذلك اليأس بما لا يقل عن دافع الرجاء .

لقد اظهرت السيدة (ماك كارفيل) (٢) Mac Carville أن العلماء

---

(١) Voyages de Gulliver

(٢) نقلا عن ناشر آثار (سويفت) . ـ مكتبة لابلياد La Pléiade ص ١٦٣٦ (هامش) .

الذين يسخر (سويفت) منهم انما ينبغي ان نبحث عنهم بين البارعين (أو اصحاب الحكم التقني) من (دوبلن) ، وكانت (ادارتها) تتبع افكارهم وتحمل على عاتقها مسؤولية خراب (ايرلندة) . وكان (روبرت بايل) ، لا عالماً صحيحاً ، بل من رجال الحكم التقني السامين ، وكان ابن احد من نهبوا الكنيسة الايرلندية .

ويمضي (سويفت) في رأيه بأن بعض السادة ينفردون بجعل ملكيتهم تزدهر ، بأن يسكنوا في بيوتهم المبنية « بحسب افضل القواعد القديمة للفن المعماري » وبأن يعيشوا تبع اخلاق اسلافهم وعاداتهم . ولكن الآخرين ينظرون شزراً اليهم ويعتبرونهم اعداء العلم ، جهالاً ، مواطنين سيئين ، يرجحون العادات الانانية على تقدم البلاد بأسرها . وعلى الرغم من ذلك فقد رضي أحد هؤلاء السادة بهدم احد طواحينه ليبني طاحونة جديدة عصرية ، ترفع فيها الآلة الماء أولاً الى مكان عال . « لقد استخدم مائة عامل خلال سنتين ثم تقهقرت القضية وذهب المهندسون ولم ينسوا ان يلقوا بالمسؤولية كلها عليه ، واشباعه سباً »(١) . ان المجلس العلمي الحكومي يحفل بالمخترعين المهووسين : هناك نظّامة كبيرة لـ « خلـــق » ، او لـ « اختراع » ، غرضها « تطوير العلوم التأملية بالاساليب الميكانيكية » : ان كل انسان يعرف مدى الجهود التي لا بد من بذلها حالياً لاكتساب الفنون والعلوم ، بينما ، بفضل هذا الاختراع ، يستطيع اجهل الناس ، ببذل جهد عضلي طفيف ، ان يؤلف كتباً في الفلسفة ، وفي العلم السياسي ، وفي الرياضيات ، وفي اللاهوت ، بدون ان ترفده عبقرية ولا دراسة » . ان مخترع الآلة يأمل في تكوين حصيلة علمية وفلسفيـــة كبرى « لو ان

---

(١) المصدر السابق ، ص ١٨٨ .

الجمهور قدّم فقط وسائل بناء واستخدام خمسمائة آلة من هذا النمط » .

●

هل الثورة الصناعية ، وهي ثمرة الثورة العلمية وارتفاع مستوى المعيشة ارتفاعاً جسيماً من جرائها ، هل تحققت هاتان الثورتان بنتيجة انتصار « اللابوتية »(١) أم بنتيجة جهود اصحاب المشاريع الصناعية الذين ، على العكس ، كانوا يستدبرون التأملات المجمعية والتخطيطات المجردة ؟ لعل ذلك يقتضي مزيجاً من النظرية ومن الحس العملي . ان الحس العملي قد لا يكون قادراً على احداث تقدم العالم ، ولكن ليس في وسع النظرية المحضة ، بالحري ، تحقيق ذلك ايضاً .

من الجائز حقاً ان ضروب التحقيق ، ولا سيما المشاريع المتصنعة بأعظم (لابوتية) في عصرنا : غزو القمر والكواكب (ومنه ننتظر تجديد شباب نفسي للانسان الذي ينظر الى اشياء الارض من مسافة قصوى تجعله يفهم اخيراً انه مجنون اذا تقاتل من اجل جبهة) ، التغلب على الجوع في العالم بفضل النظّامات وبفضل التعليم الزراعي للشعوب النامية بطريق عالم الرؤية — من الجائز حقاً ان تتكشف هذه المشاريع الكبرى ، ولا تظهر فوائدها كل الظهور (في نظر الجمهور على الاقل) ، تتكشف حوالي عام (٢٠٠٠) او بالحري (٣٠٠٠) ، على انها ذات نفع يماثل آخر المطاف نفع الكهرباء . ولكن من يدري ؟

---

(١) Laputiens

الفصل الثالث

عقائدية « العمل »

يصحب الجاهَ العظيم الذي يتمتع به العلم والعلميون ، بصورة مفارقة ، اليوم ، انحطاط أو شذوذ اختلاط يصيب معيار النظرية والعلم بالذات : يصيب الحقيقة الموضوعية . فهذا المعيار يسود المعرفة النظرية ، ويسود ، بوجه خاص ، المعرفة العلمية سيادة صارمة بنتيجة التحقيـــق التجريبي الزائف . ولكنه لا يسود سائر المجالات التي تخضع لمعايير اخرى . اننا لا نستطيع أن نصف بصفة الصواب أو الخطأ اثراً فنياً أو موسسة قضائية أو سياسية أو عملاً سياسياً أو موسسة أو موقفاً دينياً . واذا حرصنا على اطلاق حكم تبع قطبية : «صواب — خطأ» على ما لا يتصل بالمعرفة النظرية شعرنا بمقاومة الواقع واحتجاجه على تشويه المعيار المطبق تطبيقاً غير سليم . وان طماح الوصول الى « علمية — مذهبية » كلية ينتهي اخيراً الى رد كل دقة علمية وكل سلامة في الحكم .

لقد اصاب الذين فضحوا الشذوذ الذرائعي . « الحقيقي هو ما يتحقق » ولكن الذرائعي لا يسمي « تحققاً » صيغة : « لنر الامر هل هو ... » بل صيغة : « لنجعل الامر ... » . فاذا قلت : « يوجد ستة مقاعد في الغرفة المجاورة » ، فان التحقق يمثل في أن نذهب ونرى، وليس يمثل في أن نجلب مقعدين اضافيين اذا لم يكن ثمة سوى اربعة ، على نحو أن نجعل صواباً ما كان خطأ .

والعقائديات الذائعة اليوم ، عقائديات الا (براكسيس Praxis

أي « النظرية ـــ العمل » او « النظرية ـــ الحقيقية ـــ بالعمل » ، تضطلع ، بخداع سمج مماثل .

ففي العلوم الفيزيائية ، يقولون إن العالِم تقني ساذج . انه يصنع اجهزة التجريب . ويتدخل . ويؤثر في الظاهرة ، ويسهم في خلقها . بل ان الملاحظة ذاتها هي عمل متبادل . وفي العلوم الانسانية ، بصورة اعظم . لا وجود لعالم اجتماعي محض . وكل عالِم اجتماع ممثل سياسي . وبقول افضل ، الممثل السياسي وحده هو عالم اجتماع صحيح . وان الحقيقي هو ما يتحقق بالعمل الثوري .

ان ما سبق مغالطات . وكل عمل يعلّم الممثل شيئاً (والممثل يخسر بوجه عام أوهامه) . ولكن هذا العمل لا يحيل الفكرة التي ينطلق منها فكرة حقيقية ان كانت خاطئة . ان كل مريض يعلّم طبيبه شيئاً (وقد « يتعلّم » المريض نفسه من مرضه ، اذا ازدوجت شخصيته وكان مريضاً « يداوي ذاته ») . ومن جهة اخرى ، جلي تماماً ان ثمة تنبوءات مبدعة أو تنبوءات مضلّلة : يقول الطبيب المشفق : « ستشفى حتماً » . ويقول الساحر الخبيث : « ستموت قريباً » . وقد يكون الايحاء ناجعاً في الحالين . « ان انكلترة لا يمكن ان تخسر حرباً » ، « الشيوعية ستنتصر حتماً » ، الخ ... وهذه الاعتقادات تكون ناجعة اذا منحت الانصار الشجاعة (او الخصوم اليأس) ، ولكنها قد تكون في الوقت ذاته زائفة ـــ وان نجوعها النفسي لا يغير من أمرها فتيلاً .

ان الفيزيائي يسعى عبثاً لاستخدام مسرّعات الكترونية(١) جبارة حتى يحمل على الظهور جزيئاً تتنبأ به النظرية ، والفيزيائي يظل باحثاً نظرياً .

---

(١) Cyclotrons

وهو لا يسي صانعاً صناعياً للمسرّعات الالكترونية وللجزيئات. ان الجزيئي المتنبأ به يظهر أو لا يظهر . فاذا لم يظهر أدينت النظرية التي كانت تتنبأ به .

عندما وصل (بلوخر) Blücher الى (واترلو) بدّل مصير المعركة ، وقد يكون سبب ربح مراهن قد يكون راهن على (ولنغتون) Wellington ويخسر في حال انتصار (نابليون) . ولكن (بلوخر) كان قائداً بروسياً وليس عالم اجتماع ولا مؤرخاً . ان المؤرخ لا يستطيع أن يبحث في المعركة إلا كما كانت حقاً . وان « الرفاق »(١) المرحين لدى (جول رومان) Jules Romains ، وقد انقذوا السيد (لوتروهادك) M.Le Trouhadec في (المعهد) (٢) بايجادهم المدينة التي كان معلمهم قد اخطأ وذكرها في كتاب « المطول في الجغرافية » ، ان هؤلاء الرفاق ليسوا جغرافيين ، بل مغامرين اصحاب نزوات . وهم ، بتأسيسهم المدينة ، لم يستطيعوا ان يجعلوا الخطأ كما لو انه لم يقترف . ان الخداع قد يكون مبدعاً ، ولكن في حدود استباقه وجـــود حقيقة ، بطريق « استلاف طاقة » .

ان عقائدية سياسية لا تتحقق على نحو افضل (بالمعنى القوي لكلمة تحقق : او الوثوق الحقيقي)(٤) عندما تصطنع تحققها بالقوة . وستحرص قوانين الواقع على مناقضة العقائدية في المسرّع السياسي المبني بتكاليف باهظة . ان « الانسان الجديد » المرتقب ، أو « الحرية بلا بيروقراطية » ، أو « الازدهار بدون نظام انتاج » ، لن تظهر كلها حقاً ظهور الـ « كواروك » (٥)

---

(١) Copains

(٢) Institut

(٣) Traité de Géographie

(٤) Véri-Fier

(٥) quark جزيئي اساسي افتراضي

في المسرّعات الالكترونية ، الى اليوم . ونحن نراهن ترجيحاً على ظهور « الكواركات » بأفضل من رهاننا على ظهور « الانسان الجديد ») .

ولكن من السهل ان نفهم نجاح عمائدية « العمل » لدى الهــواة المتعطشين للعمل ، وهم في نفس الوقت قد سئموا سلفاً جبال المعرفة التي ينبغي عليهم ارتقاؤها سيراً على الاقدام . ان اي اصلاح بيداغوجي ، وأي تخفيف لمناهج الدراسة ، لن يستطيع في ذلك شيئاً .

ان الكتلة الضخمة ، والتعقد الاقصى لضروب المعرفة العلمية ، يبدوان لكل ناظر . فكيف لا نبحث عن « طريق ملكي » ؟ ان العمائدية المألوفة في الخدمة هي هذا الطريق الملكي — أو هذا الجهاز — المعجزة لمعرفة كل شيء بدون تعلم أي شيء تقريباً .

ولكن لا يزال من الطويل جداً أن نقرأ (ماركس) أو (فرويد) أو (نيتشه) أو (ماركوز) ، ولو في المختصرات . وان نظرية — المعرفة — بالعمل — تبرّر ، لحسن الحظ ، « اختصـــار المختصر » : « اعملوا تتعلموا » . أي طالب في علم الاجتماع لا يسعده ان يسمع من فــم الاساتذة الشبان أو الديماغوجيين الهرمين ، ان تلطيخ الجدران ووضع المتاريس في الشوارع يمكّنه من ان يسير قدماً بعلم الاجتماع بأكثر من أن يشحب في قراءة (ماكس فيبر) أو (باريتو) او (تلكوت برسنس) Talcott Parsons — أو حتى في قراءة (ماركس) و (ماركوز) ؟ لقد تبجح الثوريون الشباب في جامعة (نانتر) Nanterre عام ١٩٦٨ ، وقد نسبهم الباحثون بعد ثورتهم الى (ماركوز) ، تبجحوا بأنهم لم يقرأوا سطراً واحداً من نتاج العصر ، وانما وجدوا ما وجدوا بطريق « العمل » وحده) . وكيف لا تعظم السعادة عندما يردف الديماغوجي العجوز قائلاً : ان هذه

المتاريس أهم في تاريخ البشرية من سير ملاّحي الفضاء فوق سطح القمر ؟

لقد أُدين بوجه عام كتاب (جمس) James وعنوانه « ارادة الاعتقاد »(١) (وترجموا ذلك بعبارة « ارادة الاغترار ») ، واعتبرت النظرية نظرية مغالطة جديرة بالمذهب النفعي المهتاج للمجتمع الامريكي ، أو أيضاً جديرة بعادة المثالية البرجوازية التي تزيف الحقيقة ابتغاء تبرير الاسطورية الدينية . ولكن عقائدية العمل تستأنف بوجه الدقة المغالطات ذاتها ، وتسخّرهـا لخدمة « الثورة » ، عوضاً عن استخدامها للدفاع عن العقائديات الدينية أو عن المجتمع الصناعي . انهم يهزأون من « فلسفة » مديـري العمل الامريكيين كما تتجلى في مجلة (ريدرز دايجست) Reader's Digest والتي تقوم على التساؤل بازاء كل فكرة : « هل هذا بنّاء ؟ » . انهم ينسون الهزء من عقائديي اليوم ، كما تعرب عن ذاتها في كل مكان ، والتي قوامها التساؤل : « هل هذا هدّام ؟ » .

---

(١) Volonté de Croire

الفصل الرابع

العقائديات البيداغوجية ضد التربيــة

ان في جميع المجتمعات تربية « حيوية » للاجيال الجديدة ، نقل الثقافة الاساسية واللغة ، تربية تخلق « شخصية اساسية » شبه غريزيــة نتيجة « ظاهرة احداث الانطباع » لدى الانسان ولدى افراخ الأوز مما تحدث عنه (لورنز) Lorenz ، على قدر سواء . وكذلك توجد في المجتمع الغابر سلفاً مؤسسات تربيوية اكثر تخصصاً ، وهي تلقّن العناصر الخاصة للثقافة : تصنيفات قبل ــ العلمية ، طرق تقنية ، حكايات اسطورية . ولكن التّربية العملية (البيداغوجيا) تنطوي دوماً تحت لواء التّربية .

والامر عين الامر مبدئياً في المجتمعات المتمدينة . فالشخصيــة الاساسية تتشكل دوماً بتأثير الانطباع الذي تحدثه الاسرة ، بأكثر ممــا تحدث المدرسة ، حتّى « دار الحضانة » ، ولكن أهمية البيداغوجيا والتعليم آخذة بازدياد . وينجم عن شدة التغيرات التقنية تغيرات في المؤسسات وفي « المطلب » الاجتماعي لنمط انساني يوائم هذه المؤسسات الجديدة ، الامر الذي يجعل الشخصية الاساسية ، والنمط الانساني الناتج عن التّربية العفوية لا يكادان يوائمان « المطلب » الاجتماعي الجديد . ان التّربية تتحرك حركة دائرية ، وهي محافظة . أما البيداغوجيا فانها تقدمية ، وهي تستبدل الحلزوني « بالدائري » .

وعلى هذا ندرك حماس العقائديات البيداغوجيــة . ومما يثير شغف

العقائديين التقدميين انجاز ارجاع التربية بالمعنى الصحيح الى حدهـا الادنى، ارجاع التأثير الانطباعي العائلي الى حده الادنى. وليس للثورات المسماة « ثقافية » ، فيما وراء الثورات السياسية والاقتصادية ، أي معنى آخر . وان تغيير الانسان هو من صنع المدبر الافلاطوني بأكثر من تغيير المؤسسات .

واجب التخلي عن عادة النظر الى المذاهب الاشتراكية من مجرد الزاوية الاقتصادية أو السياسية . فهذه المذاهب ، بصورة اعمق ، هي منظومات تريد انتزاع نقل الثقافة من الاسر وتخصيص البيداغوجيا العلمية بها وهي تخضع لرقابة الدولة أو الحزب العقائدي المسيطر . ان التسوية الاجتماعية بالتعلم والبيداغوجيا المؤاءمة ، هي مفتاح التسوية الاقتصادية والسياسية وكفالتهـا .

لقد سبقت الاشتراكية البيداغوجية الاشتراكية الاقتصادية بأكثر من ان تليها . وعلينا ألاّ نرقى الى (افلاطون) . فالفيزيوقراط ، وكثير من طوبائيي القرن الثامن عشر الذين كانوا يزدرون الماضي ازدراء تاماً ، وكانوا يطالبون بمحو جميع المؤسسات منذ أن تبدو لهم غير مريحة وضارة بتناظر خططهم ، انهم كانوا يريدون التعليم العام الموصول .

كان (تورغو) Turgot يقول : ان الكفالة السياسية الاولى ، والوحيدة ، هي « تعليم عام تنهض به الدولة بحسب بعض الطرق وتبع روح معينة » . وقد كانت ثقته بهذا العلاج الفكري لا يحدها حد . وكـان يعد (لويس السادس عشر) باحداث المعجزات بهذا العلاج . فالدولة ، بالتعليم ، تصنع من الناس كل ما تريد . وكان الفيزيوقراط يمتدحون الصين ويعظمونها ، هذا البلد « الذي يحصل فيه الناس على المناصب كلها بطريق مسابقات

أدبية ، وليس لها من دين سوى الفلسفة ، ومن ارستقراطية سوى المثقفين »(١) .
وفي طوبائية (موريللي) (٢) « ينتزع الاطفال كلهم في سن الخامسة من العمر من احضان اسرهم وتربيهم الدولة على نفقتها تربية واحدة متماثلة » .

واليوم يحقد العقائديون التقدميون على « السوق الحرة » للتعليم بأكثر من حقدهم على السوق الحرة الاقتصادي : ذلك ان السوق الحرة للتعليم تنتهي بأن تتيح للسلالات الانسانية الموجودة ان تصون نفسها في كيانهـا بدل ان تكون خاضعة للطفرات التقنية أو العقائدية . ان عقائديي البيداغوجيا يرون ان التبكير في انتزاع الطفل من اسرته لا يكون مسرفـاً أبداً ، وان تأخيره في المدرسة أطول مدة ممكنة ليس بتأخير مسرف . وهم لا يكتفون بتمديد سن التعليم حتى السادسة عشرة من العمر . بل ينبغي المضي حتى الثامنة عشرة ، حتى خدمة العَلَم (وهذه تصبح عندئذ بيداغوجية بالدرجة الاولى) .

ان مؤسسات التعليم تصبح ، بحسب العقائدية ، القسم الرشيمي الذي ينطوي على التجهيز التكويني ، على الـ A.D.M. (٣) للجميع . وبصورة أدق ، ان الجامعيين ، باعتبارهم علماء وباحثين ، هم الـ A.D.N. ،

(١) توكفيل : النظام القديم والثورة (مجموعة : بلاد سلسلة ١٠ — ١٨ ص ٢٦١)
Tocqueville: L'Ancien régime et la révolution (Pays-10 LL. 10/18/ 261).

(٢) نظام الطبيعة . وانظر ريمون رويه : الطوبائية والطوبائيات (دار النشر الجامعي الفرنسي) . **Le Code de la Nature**

(٣) **Acide désoxy ribonciéique** حامل الوراثة المادي وهو المقوم الرئيسي للصبغيات .

والجامعيين ، باعتبارهم معلمين ، هم الـ A.R.N. (١) ، حاملو الرسالة الى الجسد الاجتماعي الذي ينبغي ان يتحوّر تحوراً مطواعاً بحسب تعاليمهم . وعلى هذا النحو (الجامعة الرشيم) هي التي تشكل الجسد الاجتماعي . فهي تعطي الإعلام ، ولكنها ، بوجه خاص ، تبدع الإعلام . وان التجهيز الصبغي للعضوية تجهيز محافظ بالدرجة الاولى ، ويكون بصورة طارئة ينبوع طفرات . بيد أن (الجامعة الانتاش) تريد ان تكون بالدرجة الاولى ينبوع طفرات متسارعة ، ينبوع ثورة دائمة ، شبيهة بصبغيات ذباب الخل ، عندما تخضع هذا الذباب ، لاغراض تجريبية ، الى تأثير أشعة (س) ، أو لمواد مكوّنات المسوخ أو مكوّنات الطفرة . ان (الجامعات) التجريبية مثل جامعة فنسين Vincennes في فرنسة) ، تمنح ذاتها على هذا المنوال دور مركز « طفرات » « ذباب الخل »(٢) « الانسانية . وان كلمة « طفرة » المستعملة في الغالب كيفما اتفق ، ترتدي هنا معنى دقيقاً موائماً .

ويذهب (ج ـ ج كورسن) J-J. Corson (٣) الى ان المجتمع لا يستطيع ان يتجه الى غير الجامعيين من اجل حل مشكلاته . فالجامعيون وحدهم يملكون « القدرة الخاصة اللازمة لمعالجة المشكلات العامة للجماعة الاجتماعية » ـ العدالة الاجتماعية ، السياسة الخارجية ، مكافحة الاضرار ، الصعاب العرقية ، جنوح الشباب . ـ « انهم يرغبون كل الرغبة في تطبيق ذكائهم ومعارفهم على مثل هذه المشكلات . وفوق

---

(١) Acide ribonucléique (المترجم)

(٢) Drosophiles

(٣) مجلة حوار Dialogues ـ العدد الرابع ص ١٠٠ ـ ان (ج ـ ج . كورسن) جامعي امريكي .

ذلك ، انهم ينمّون الموضوعية تنمية مهنية ، في حين ان رجال الاعمال الاقتصاديين أو السياسيين لا يستطيعون ان يظهروا موضوعيين ... ومن ناحية اخرى ، لا يملك رجال الاعمال وقتاً للتفكير ... وبعد عشر أو عشرين سنة من ممارستهم مهنتهم ، لا يستطيعون معالجة المسائل بروح غضة » . وبوجه اخص ، ان الجامعيين « موهوبون بطبعهم للبحث عن المعارف الجديدة » . وبما اننا نعيش في عصر المجتمع المبني على العلم ، والذي لم يبقَ مبنياً على « ممارسة حرف اتفاقية » ، ولذا ينبغي الاتجاه الى اولئك الذين يملكون القدرة ، والوقت ، وتذوق الفكر على نحو مبدع ، مع تجرد ودقة . واخيراً ، فان الجامعة مستودع « ارفع قيمة تمدينية » ، حرية الفكر والتعبير . ويرى (دانيــل بل) Daniel Bell ان (الجامعــة) تسهم ، سلفاً ، اسهاماً ناشطاً متزايداً في انضاج البنيات الاجتماعية . وهي تعمل حالياً على ان تحل محل المشاريع الخاصة في الدور الذي لعبته هذه المشاريع خلال المائة سنة الاخيرة . « ومن جهة اخرى ، ان لم تكن الجامعة ، فأي جهاز يمكن ان يضطلع بالكشف عن المعلومات التي نحتاج اليها لتحوير عالم افضل وتطبيقهــا ؟ » .

وفي فرنسة ، تطالب العقائدية البيداغوجية بالرجوع الى الاحتكار الدقيق للتعليم ، والى اخضاعه كله للديمقراطية ، وتحقيق مجانيته في جميع الدرجات ، ومنح رواتب للطلاب . وهذه العقائدية تطالب باصلاح دور الحضانة أو بمراقبتها باشراف خبراء نفسيين قادرين على نزع الاطفال من براثن أي تأثير شرطي تحدثه فيهم الاسرة وتربيتهم ابتغاء مجتمع الغد . وعلى هذا النحو تبدو البيداغوجية سلبية الصيغة بوجه خاص ، أول ما تبدو . انها ترمي الى تحقيق طفرات ، وعليها أولاً أن تدرب النشء على النقد .

وعلى المشاهدة . ولكن هذا الوجه السلبي ليس سوى وجه واحد. ان البيداغوجية تبني الانسان الجديد ، الذي خضع للطفرة ، والذي يتأهب دوماً لتلقي طفرات جديدة .

هنا تتردد العقائدية البيداغوجية بالتقائها مع العقائدية المحرّرة . ان عقائديي التحرير يريدون ، اكثر ما يريدون ، العمـــل على التحرير . التلاميذ الشباب يحررون دوافعهم ورغباتهم وضيقهم من أية رقابة اجتماعية ، بل ومن اية رقابة ثقافية . ويشجعهم المعلمون ــ الرفاق على مبادهاتهم ضد المعايير والمحرّمات المختلفة ، جنسية كانت أو نظامية . انهم يرفضون الامتحانات ، والاصطفاءات ، والشهادات ، والتصنيفات . وتنـــادي البيداغوجيا التحررية بواجب عدم قسر التلاميذ على بلوغ مستوى معين ، اذ من الواجب ، بالحري ، تكييف المستوى مع عفوية التلاميذ . والتلاميذ يعبّرون بحرية ، كما في نوع من عيد دائم ،وبأنواع شتى من ضروب التحرر من العقد المكبوتة ، مسرح مرتجل ، حفلات تنكرية ، حوار حر مع المعلم .

ولكن هؤلاء المربين التحرريين يبدون سذجاً في نظر المربين السياسيين . فالعقائدية البيداغوجية بالمعنى الصحيح لا تحرر إلا من اجل الادمـــاج المسلكي . وما البيداغوجية التحررية سوى مرحلة .

هل العقائدية البيداغوجية « مستقبلية » أم « رجعيـــة » ، بالرغم من نواياها التقدمية ؟ لقد كانت ضروب التقدم أو « الطفرات » في الماضي « نتيجة جهد ممارسين مسؤولين دوماً ، باعة ، بحّارة ، صنّاع يدويين ، صناع معامل ، صناعيون ، طغاة ، كانوا يبحثون عن إعلامات ــ رسائل ، وكانوا يلجأون الى « بارعين » ، الى تجريبيين ضد المدرسية السائدة ، ولكنهم كانوا يحتفظون بالمبادهة . وعلى هذا المنوال كان الامر في الاسكندرية ، في

فلورنسة ، كما كان في الغرب إبان الثورة الصناعية الاولى . ومما لا يطـاله الشك ان الثورات الصناعية التالية كانت اكثر اتصافاً بالعلمية و « بالبحث النظري » ، وبالمنهجية . اترانا ندخل بعد الآن عصراً جديداً حيث سيحل العلماء « الجهابذة » محل اصحاب المشاريع الاقتصادية والسياسية في اعادة سبك الانسان والعالم الانساني ؟

أنشاهد (انبعاثاً) مقلوباً ، على أساس مدرسية — تحل محل المدرسية الاولى التي كانت (انبعاثاً) ضد المدرسية ؟

ان الاستعارة التي تشبّه (الجامعة) بـ « رئيم » الجسد الاجتماعي (١) استعارة خادعة(٢) . ففي نظر علم الوراثة الجزيئي ، الطفرات تقترح ، والسلوك العضوي النوعي يتصرف ، باصطفاء الطفرات التي توافق السلوك المرتجل في بادىء الامر . لقد زحفت اسماك التنفسين (٢) بادىء ذي بدء على الارض اليابسة ، بعسر ، ثم جاءت طفرات لا تحصى وثبتت هـذا السلوك الجديد في خلاياها الرشيمية ونهضت الحيوانات الشبيهة بالانسان على اطرافها السفلى واستخدمت « ايديها » للمداولة ، ثم جاءت طفرات ثبتت هذه الاستعمالات الجديدة . وهذا الاصطفاء بالطفرات « المؤيدة » اصطفاء سعيد بالنسبة للنوع ، لان الطفرات الناتجة عن المصادفة المحضة هي في جلها ضارة . وان الجسم ، الـ « بدن »(٣) ، هو الغائي المنزع (٤)

(١) لقد اقترح (ب . اوجه) P. Auger ، اذا لم اخطىء ، هذه الاستعارة أول من اقترح ؛ (ولم يكن يضمر قاعاً عقائدياً) .

(٢) التنفس بالرئة وبالغلاصم . (المترجم)

(٣) Soma

(٤) Téléonomique

وهو الذي يوجّه ، بالاصطفاء الذي ينهض به ، المسيرة العمياء ذات الاتجاه الوحيد » لرشيمه » الخاص .

ان المجتمعات الانسانية لا تستطيع الرضوخ لعدم التقدم إلا اذا قام مثل هذا الاصطفاء الطبيعي . فهي لا تستطيع ان تفنى بمليون بذرة لحذف « الطافرين » الاجتماعيين السيئين . وعلى هذا ينبغي عليها أن تراقب على نحو مباشر اعظم العقائديات ـ الطفرات التي تقترحها (الجامعة ـ الرشيم) .

ان عقائديي المراكز الجامعية التجريبية لا يفهمون الامر على هــذا المنوال . فهم يرفضون رقابة الجسد الاجتماعي الناجز . يرفضون « دعــم المنظومة » . يرفضون انماط القيم ، والغايات ، والسلوك المرجّه ، مما يختاره المجتمع الراهن . انهم يريدون منهجاً آخر . انهم لا يريدون ان يكونوا في خدمة التنفيذ الافضل للمناهج الحالية . فالطلاب ومعلموهم الشباب يرفضون خدمة المجتمع كما هو ، وكما اراد المجتمع لنفسه أن يكون . انهم يريدون أن يراقَبوا ، لا أن يراقَبوا . وهم يحتجون لذلك بقولهم ان من الخطأ الاعتقاد بأن المجتمع الحالي قد اراد ذاته بذاته حقاً . واذا صدّقناهم قلنا ان المجتمع يخضع سلفاً لتحوير يجريه رشيم وطفيلي ، رشيم رجال الاعمال الرواد والسياسيين الجهال ، ولذا يبدو لهم أن من الشرعي ان يحلوا هم محلهم . ثم يردفون : ومن ناحية اخرى ، ان « الطفرات » التي ينجزونها ليست طارئة مثل الطفرات العضوية ، بل هي محسوبة .

وبالرغم من ذلك ، فليس من النادر أن توجد تجارب تاريخية توضح خطر مكوّنات المسوخ التي تنطوي عليها الطفرات المفروضة على هذا النحو وهي من اصل جامعي . ففي القرن التاسع عشر ، في (الغرب) ، اسهمت الجامعات الالمانية أو السلافية اسهاماً كبيراً في مذهب التوسع الجرماني ، في

مذهب التوسع السلافي . واليوم تقدم الجامعات الامريكية من غير تروٍ التربية التحررية ، « الماركوزية » ، الـ L.S.D (١) ، التحرر الجنسي . وفي افريقية ، تكبح الأولوية الممنوحة « للطفرة المدرسية » جماح التقدم الزراعي . والمدرسة هي التي تمثل سبيل الوصول الى طبقة المتميزين ذوي الوظائف العامة . وهذه الطفرة المدرسية تؤدي في (الكونغو) وفي (غابون) ، الى عاطلين عن العمل يتسكعون في شوارع القرى وبين الأكواخ في ضواحي العاصمة ، ثم ينضمون الى صفوف المقاومة السرية . » ان قادة الجماهير في (نيجيريا) يعتبرون انفسهم سادة القرية . وهم يحتقرون الكادح الحديث في افريقية : الفلاح الاسود الشجاع جداً ، المحترم جداً » . وأما ابن هذا الفلاح فانه تلميذ « لا يمكن ان يشعر إلاّ برغبة واحدة ، هي رغبة الفرار من الارض ومن عبوديته »(٢) .

ان الماوية في الصين ، وهي تؤيد الفلاحين وتضاد البيروقراطية ، — والتي لا يرتبط الماويون الفرنسيون بها إلا بروابط واهية — عقدت النية بصورة دقيقة على اجتناب الطفرات غير المراقبة الصادرة عن أصل جامعي أو بيروقراطي . و « الكتيب الاحمر » — ونحن لا نعرف حقاً هل يحمل في نظر الصينيين عقائدية أم حكمة لا عقائدية — يريد أن يكون منطلق نوع من طفرة « جسمانية » ، بأكثر منها طفرة « رشيمية » ، أي طفرة يفرضها « الجسد » الاجتماعي الذي ينعشه (ماو) مباشرة ليكبح بهـــا البيروقراطية الجامعية أو غير الجامعية . ان هذا الكتاب الصغير يتميز على

---

(١) Acide Lysergique مولد للهلوسات (المترجم)

(٢) ر . دومون : افريقية السوداء وطني — (طبعة سوي المنقحة ١٩٦٩ ص(٧٩) و (١٥٥)) . R. Dumont: L'Afrique noire est ma patrie

الاقل بأنه يمثل تربية ابوية بأكثر من تمثيله تربية منهجية ، يمثل تربية أقل تكلفة من التربية بالآلات الثقيلة الباهظة الرامية لتكوين مثقفين وبيروقراطيين.

●

لقد كان التعليم ، عبر التاريخ ، « ذا نزعة نحو الماضي » في الغالب بأكثر منها « نزعة نحو المستقبل » . ولعل ذلك صواباً ، ولصالح المجتمع . لقد كان نظام « الانسانيات » الذي نشأ في عصر الانبعاث يتألف من مسعى جعل شبان الطبقات العليا في المجتمع قادرين على فهم تحف العصر القديم وتقديرها . وقد كانت هذه التربية المتحررة والمتكلفة حقاً تطالب بتمارين تدريجية وتفسح المجال أمام نظام عقلي قادر على التأثير في الشخصية كلها ، من جيل الى جيل(١) . فالقدامى ، وعلى الاقل الاغريق ، لم يعرفوا البتة شيئاً مماثلاً (كان الرومان يتعلمون اللغة الاغريقية باعتبارها لغة حية) . وعلى الرغم من ذلك فان « الانسانيات » الغربية لم تكن مجرد شذوذ بيداغوجي ناجم عن شذوذ آخر تاريخي ماثل في عصر الانبعاث — ويرى (توينبي) Toynbee في تفسيره انه « تماس الثقافات في الزمان » . وان التربية في جميع الثقافات الكبرى ذات الاصل الديني « لتنزع شطر الماضي » وتستند الى نصوص شرعية والى دراسة المؤسسين و (الآباء) — ولا تشذ عن ذلك الثقافة الشيوعية .

وعلى الرغم مما تقدم ، فان الباحثين قد دهشوا منذ القرن الثامن عشر امام سمة المفارقة التي تسم التربية الانسانية النزعة والوثنية في البلاد المسيحية — والتي كان الجانسينيون Jansénistes أقل ارتياحاً اليها من اليسوعيين Jésuites — أو سمة المفارقة التي تسم التربية على الطريقة الغابرة في عالم

---

(١) انظر : كورنو : اعتبارات .... (بوافان Boivin ص ١٤٥) .

ذي تقنية تقدمية ، وحيث لم يبق في وسع الاطباء دراسة (هيبوقراط) Hippocrate و (جالينوس) Gallien كما يدرس المتأدبون (فيرجيل) Çirgile أو فلسفة (افلاطون) .

●

واليوم يكتشف الباحثون ، بالرغم مما سبق — وباستثناء العقائديين بالطبع — أن « مذهب الحاضر » و « مذهب المستقبل » هما على الاقل عين محاذير « مذهب الماضي » . ذلك ان التربية ، كالتكون العضوي الجنيني الذي تتمه هي في مجال الثقافة ، تنزع بالضرورة « نحو الماضي » . انها تجري بخطور الذكريات ، بالاختصارات ، بالمراجعات ، ولا تجري بحذف الماضي ومن النافع في أغلب الاحيان من الناحية البيداغوجية ، وحتى في تعليم العلوم والتقنيات ، اتباع الترتيب التاريخي للاكتشافات وتتبع دروب المكتشفين . وعندما يتعذر ذلك لضيق الوقت فان المحاذير تكون جسيمة . فالشباب الذين يتمثلون تمثلاً (سيئاً) النتائج العلمية لا يتعلمون الروح العلمية . فهم يعتزون بالاداة المتقدمة ، بدون ان يفهموا انبثاقها عن اداة اكثر اتصافاً بصفة الصناعة اليدوية . انهم يصبحون متعالمين في العلم ، وبدون ان يمتلكوا الروح العلمية .

والأمر أسوأ في الثقافة الادبية ، وفي « العلوم » الانسانية . ان التربية الادبية أو الفلسفية ، نظراً لفقدان نماذج ثابتة ، نماذج غابرة ولكنها اساسية ، لا تبقى سوى فرع من فروع الزي الذائع ، بمنظره العابث ، وبحماسه التجديدي . فالاساتذة يعدون وراء الكاتب والفيلسوف الاحدث ، والذي يجعل الناس يكثرون كلامهم عنه ، حتى يرضي الاساتذة تلاميذهم الذين يجدون حتى كتاب الجيل السابق كتاباً مهترئين ، وهم يسأمون من

(بروست) Proust نفسه ، في حين انه لم يمض سوى قرن واحد كانـوا يشعرون فيه بمتعة قراءة (فكتور هوغو) أو (موسه) Musset في الخفاء . وعوضاً عن ان يتعلموا ادراك الجديد من حيث انه جديد يقوم فوق اسس معايير أو نماذج ، نجدهم يتدربون على اتخاذ الجدة معياراً . انهم يعتبرون المراحل السابقة محاولات مضحكة ، وان من الممكن اللهو ببعثها بعـون افكار حديثة – تقريباً كما كان علماء الكلام ينظرون الى الحيوانات باعتبارها مسوخ الانسان ، وان في وسعهم اللهو بالباسها ثياب البشر . واللغة ذاتها توضع في هذا المنظور المقلوب . اللغة المدرسية لم تبق الا تعبيراً متكلفاً مثل غيره وهي تعبير أقل تسلية من سواه . ان التربية الثقافية المفهومة على هذا النحو تشبه هدماً متوحشاً – ما دامت الهمجية تقوم على رفض الماضي ، ماضي الآخرين ، وماضي البرابرة انفسهم .

ان في وسع النماذج التي يمتحها (الباحث) من ثقافته الخاصة ، بالرغم من عدم تكيفها نسبياً مع العالم الحديث ، ان تؤلف لحمة تكيفات مضافة ، كما تصلح لحمة تكون الثدييات على الدوام لخنازير البحـر أو للخفافيش أو كما تصلح لحمة الزواحف للطيور . ان « مذهب الحاضر » او « مذهب المستقبل » في العادات الاخلاقية يرفضان التاريخ والتقاليد من اجل نماذج اتنولوجية يفضل المفضلون كونها نماذج بعيدة ، غريبة ، لا يمكن تكيفها . ان التعاظم الانتربولوجي يحل محل التعالم ذي النزعـة الانسانية ، وبدون تحقيق فائدة تذكر . لقد تحررنا من أسر الاغريـق والرومان – ووقعنا في عبادة كاملة لل (ارابش) Arapesche والا (بورورو) Bororos كما انتهى الحال بمركيزة (بروست) من « دروب آلام الصليب » الى العبادة الكاملة ل(بوستيون دي لونجومو) Postillon De Longjumean.

●

تلحف العقائديات البيداغوجية على تقنية بيداغوجية ترى انها ستكون منذ الآن اصل العلم (علم الإعلام ، علم النفس ، علم الوراثة ، الخ) . وان الايمان ، وحمل الآخرين على الايمان بهذه التقنية ، يمثلان شرط الحصول على مضاعفة عدد المستشارين البيداغوجيين . ترى هل وجـــود بيداغوجية علمية مجرد اشاعة ينشرها علماء النفس ؟ بديهي أن من النافع ألا يجهل معلم مراحل عقلية الطفل ، وان يعرف استاذ العلوم التصورات العفوية للعالم ، والتصورات قبل ــ العلمية ، حتّى يقدر كل منهما على تقويم الاعوجاج ، مع الاستناد اليها . ولكن هذا هو كل شيء تقريباً . فالبيداغوجيا ، شأنها شأن علم النفس العملي ، مسألة حس سليم اكثر منها مسألة علم ، مسألة تعاليم مبنية على اساس تجربة عملية متحولة تبع المادة المقررة ، اكثر منها مسألة قواعد مستقاة من اسرار مكتومة مختلطة أو من نظريات ذائعة ذيوع الازياء .

ان من اليسير ان نعدّد بسرعة هذه التعاليم العملية :

أ ــ التدريب على القيام بتمارين عوضاً عن تفلسف يسبق أوانه حول ما يعلمه المعلم ، وعلم ازعاج التلاميذ بتمهيدات طرائقية .

ب ــ استخدام الذاكرة قبل الذكاء من أجل تكوين الاطر الضرورية لاكتساب معارف تزداد اتساماً بالسمة الفكرية .

جـ ــ الحفظ غيباً ، حتّى قبل أن يفهم التلاميذ ، للنصوص « المدرسية » التي ألّفها العلماء والكتّاب .

هـ ــ استخدام الكتب المدرسية الوجيزة ، والواضحة ، والاعتقادية ، في كل ما هو أولي .

و ــ التأخير المنهجي لتعليم النظريات الاحدث ، وايضاً النظريات التي ما تزال في حال عقائديات غير متحققة .

ان هذه التعاليم تصلح للتعليم الابتدائي والثانوي . وقوامها بالدرجة الاولى رفض « المَثَل » القديم المأخوذ عن (مونتاني) Montaigne — وهذا الاخير كان يحفظ غيباً الادب اللاتيني كله تقريباً — هذا المثل المكرر لدرجة تبعث على الغثيان ، والقائل : « الرأس المصنوعة جيداً خير من الرأس المملوءة جيداً » ، كما لو ان من الممكن صنع رأس بدون ملئها ، وكما لو كان من الممكن « تعلم التعلم » إلا بالتعلم .

ان هذه التعاليم ، من ناحية اخرى ، تقوم على رفض طماح التسلية ومنافسة السينما والتلفزة . ذلك أن التعليم بالنسبة للتلميذ هو عمل ، وهو لا يسلي إلا باعتباره عملاً . هناك ضرورة تدعو لتعلم هذا الشيء ، لا ذاك ، وهذه الضرورة لا يمكن اخضاعها لاهواء التلاميذ الغريبة (وقد اوحى العقائديون بهذه الاهواء الغريبة من جهة اخرى) . ويرجع فن المربي الى أن يجعل المادة التي يعلّمها مثيرة للاهتمام . وليس له أن يسأل التلاميذ سؤالاً ديماغوجياً عما « قد يثير اهتمامهم » .

أما بالنسبة للتعليم العالي فان لهذه التعاليم قيمتها ايضاً ، ولكن بعد نضدها . اجل ، ينبغي تعليم آخر ما بلغته العلوم والحدوث ، ولكن ينبغي ترجيحاً ان يقوم بذلك الاساتذة الانضر عوداً — ويصرف الاساتذة المتقدمون في السن الى تعليم الاقسام الاكثر رسوخاً من اقسام البحوث والدراسات على نقيض العادة المتبعة حالياً .

ان البيداغوجيا المسماة علمية تقوم في الاساس على الانطلاق مما يضاد بيداغوجية الحس المشترك ، وهي تتعجل اذاعة الطرائف المنتقاة من الاشياء

العلمية أو الفلسفية التي تتسع للمناقشة . فقد استخلصوا من نظريـــة (الجشطالت) في علم النفس ، وقد أساؤوا فهمها ، طريقة القـــراءة الاجمالية — وهي طريقة كارثية يتشبثون بها تشبثاً عجيباً يتعذر تفسيره ؛ ومن الرياضيات « الحديثة » و ال (بورباكية) (١) (بالرغم من احتجاج كثير من البورباكيين) استخلصوا فكرة ان الرياضيات هي كلام معقد يرمي الى ترجمة « بداهات » بأكثر من كونها جملة مسائل ينبغي حلها . ومن التحليل النفسي ومن المذهب البنيوي ، ومن علم الإعلام ، استخلصوا على عجل « بيداغوجيا جديدة » خاصة بالنمو ، والادب ، والتاريخ ، — عندما لم يتخذوا هذه الطرائف ذريعة لينشروا في سوق جامعية واسعة — (وهي شبه سوق ما دامت خاضعة للدولة) — كتباً وآلات تثير فزع التلاميذ وتنفخ صلفهم وتهب والديهم مركب النقص .

●

ان شأن المذاهب البيداغوجية شأن الطب النفسي — الجسماني أو تقنية التنويم المغناطيسي . فهذه المذاهب عرضة لوهم التحقيق ، بفضل الايحاء الذاتي ، وبفضل مفعول (بلاسبو) (٢) . اننا نعرف الحكاية الشهيرة لدراسات علماء النفس التقني في (شركة وسترن الكتريك) (٣) Western

---

(١) Bourbakienne نسبة الى (نيقولا بورباكي) N. Bourbaki وهو اسم مستعار جمعي اتخذه فريق من علماء الرياضيات الشباب من خريجي المعهد العالي للمعلمين وعددهم يتجدد دورياً عند استقالة من يتقدم به العمر فيبلغ خمسين عاماً ويحل محلهم غيرهم من الشباب ، ومنذ سنة ١٩٣٩ سعوا الى اتباع رأي (هيلبر) Hilbert باعادة عرض الرياضيات بالرجوع الى منطلقها المنطقي . (المترجم)

(٢) Placebo المجامل او المساير . وتدل هذه الكلمة في مجال العلاج على مادة

Electric . لقد كانوا يدرسون تأثير الانارة والحرارة وفترات توقف العمل على مردود معمل . وقد حسب هؤلاء العلماء انهم اكتشفوا قوانين دقيقة حول نتائج هذه العوامل المختلفة . ثم فطنوا الى ان التأثير الجيد الذي شاهدوه لا يرجع لهذه العوامل المختلفة إلا بصورة ثانوية جداً ، لان المعمل — المخبر ظل في جميع الاحوال ، وحتى عندما رجعوا الى الشروط الاولية ، يتميز بمردود افضل ، وبغياب اقل ، وبروح تضامن أعظم . وسبب ذلك ان مجرد شعور العمال باهتمام الآخرين بهم ، بأي شكل من اشكال الاهتمام، ما دام اهتماماً خاصاً ، كان يدخل السرور الى نفوسهم ، ويحسّن موقفهم النفسي ، ومن ثم ، جودة عملهم .

ان أية نظرية بيداغوجية ، ولو كانت مفرطة في الغرابة ، وعلى اساس وجودية أو النبيوية ، او الفوضوية ، أو مذهب ترجيح الوضع ، أو مذهب ترجيح المؤسسات ، تبدو نظرية متحققة عندما يجرّبها مرب متحمس لفكرته : التلاميذ ، حين يشعرون بأنهم موضع اهتمام ، يتحوورون فعلاً ويتقدمون — أو انهم في جميع الاحوال يظهرون نجوع الطريقة . وحتى بيداغوجية اللانظام ، أو بيداغوجية التحرر ، فان في وسعهما أن تنتهيا الى التنظيم ، كما تنتهي البيداغوجيا الانتقادية بوجه عام الى الاعتقادية . بيد أن شيئاً لا يبرهن على أن مثل هذه الطرائق ، حين نطبّقها على سلّم واسع ، على الجميع ولاجل الجميع ، بدون مفعول (بلاسبو) ، وبخاصة بدون حماس المحاولات الاولى ، لا يبرهن على انها يمكن ان تنتهي الى غير نتائج مؤسفة .

يستعاض بها عن الدواء لدراسة التأثير الحقيقي للدواء بصرف النظر عن العوامل النفسية التي تصحب تناوله . (المترجم)

(٣) شركة امريكية لصنع وبيع الاجهزة الهاتفية .

ان الاطفال ، بأغلبيتهم العظمى ، يتكيفون مع النظام بالمعنى « المدرسي » تكيفاً أفضل . وقد يكونون مقعدين حرفياً من جراء طرائق غير سوية . ان بيداغوجية « متقدمة » هي فردوس الطوباثيين والعقائديين كما أن نظام الحمية الجديد فردوس المخترعين « التافهين » الذين يفوزون بالنجاح ذات النجاح مع تفل السكر ، والنخالة ، وخبز الشيلسم ، والغضار ، ونشارة الخشب ، وخميرة البيرة ، واللبن الرائب . وبينما يخفق العقائديون على الفور في مجال الاقتصاد — مثلما يخفق مخترعو الحركة الدائمة في مجال الميكانيك — وبينما يخفقون سريعاً في السياسة ، فانهم « ينجحون » دوماً في مضمار البيداغوجيا — وعلى الاقل — ما بقوا في تخوم دوائرهم الصغيرة الاولى . المخترع يعتقد ، بنية سليمة ، بأنه يحقق طريقته ويكسب ، بتكلفة زهيدة ، شهرة مفكر أصيل . ولكن الكوارث لا تأتي إلا بعدئذ ، عندما يستسلم الجمهور ، وتستسلم الحكومات ، لعدوى العقائدية على سلم واسع . وقد انتجت البيداغوجية شبه — العلمية المسلحة بسلاح التحليل النفسي أو بالعقائديات المختلفة ، انتجت في الولايات المتحدة الامريكية ، مع جيل الدكتور (سبيك) Spick كارثة قومية حقيقية .

ان فكرة تربية انتقادية — تربية قد تدع للطفل ان يقوم بالاختيارات الاساسية — هي بذاتها متناقضة ما دامت التربية تجري بمشاركة لاواعية ، وليس بتعلم نمط مدرسي . ان البيداغوجيا الانتقادية ليست أقل خضوعاً للمناقشة ، وهي تقر المساواة الاساسية بين المعلم والمتعلم ، وترفض منح السلطة على المكلف بالتعليم والاطلاع (١) .

(١) انظر : ث . برلمان : الاخلاق والتعليم — (بروكسل ١٩٧٠ ص ١٢) .
C. Perleman: Morale et Enseignement.

لقد عرّفوا الحماس البيداغوجي بأنه رغبة وضع القيم والشباب موضع التماسّ . ولهذا الحماس وجهان : أ ـ كشف النقاب عن عالم القيم امام الشباب ، وجعلهم يعجبون بعجائب العلم وبعجائب الفن . ب ـ ومن جهة اخرى ، اختيار شباب ومناضلين جدد ، أي ايقاظ المواهب ، لخدمة القيم . وهذه المرحلة الثانية هي التي قد تقود الى الانحراف السياسي : ان المعلم لا يوقظ المواهب العلمية او الفنية أو الدينية ، بل يختار من اجل حزب . وعذره اعتباره ان هذا الحزب يجلب **منتهى الصلاح** . ولكنه ، عندما يختار على هذا النحو ، ليس أقل من مخادع ومضلّل .

عقائدية التربية المستمرة

ان اعادة تأهيل الراشدين (مهندسين ، اطباء ، اساتذة ، عمال ، زراع) ، هي ضرورة عندما تتغير التقنيات تغيراً سريعاً . على الطبيب ، وطبيب الاسنان ، ان يكون مطّلعاً ليحظى بعناية زبائنه . ولكن الفكرة العامة لاعادة التأهيل ، وقد اعتنقها العقائديون ، اضحت عقائدية نوعية . فالصناعيون ، والتجار ، وعلى الاقل في الاقتصاد الليبرالي ـ وهذه احدى نقاط تفوقه على اقتصاد الدولة ـ مرغمون ، تحت ضغط المنافسة ، ومن اجل « اللحاق بالركب » ، على اعادة تأهيل مستمرة . وفي جميع الاحوال التي تكون فيها اعادة التأهيل امراً حيوياً بسبب مقتضيات الزبائن نلفى هذا التأهيل المتجدد يجري بصورة عفوية وناجعة . ومن شأن اخضاع المهن للعمل الحكومي ان ينتج عنه في الغالب توقف في اعادة التأهيل الشاقة ، باديء ذي بدء . وثمة موضوع معلوم يمثل في عطالة الدوائر عطالة

(كورتلينية) (١) ، وهذا الموضوع تلحف عليه الحافاً جدياً صيغة « المجتمع المجمّد » . وهي صيغة معلومة، ولكن الزمن قد تجاوزها اليوم . ذلك ان (كورتلين) Courteline جديداً قد يتخذ لنفسه صيغة جديدة هي ، على العكس ، صيغة وسواس التغيير من اجل التغيير . فكلما تقدم استيلاء الدولة ، تراجعت اعادة التأهيل العفوية في الاقتصاد الليبرالي امام « اعادة تأهيل موجّهة » ، تقوم بها فرق من الاخصّائيين بال « ابتكارية » (في الفنون) ، و بال « طفرة الضرورية » (في المجالات الاخرى) . ويكتسب اخصائيو اعادة التأهيل شهرة بقدر ما انهم يذيعون افكاراً . ولسوء الحظ نجد اعادة التأهيل الموجّهة اقل نجوعاً بكثير من اعادة التأهيل لاجل البناء ، ان لم نقل لاجل الهدم .

ان القائمين الرسميين باعادة التأهيل يزعمون انهم يعلّمون العمال واصحاب المشاريع والتجار كيف يعيد كل منهم التفكير في مهنته ، وذلك في محاضرات مسائية . ويستسلم المعنيون ، بعضهم بأمل ترقية اجتماعية ، وبعضهم الآخر بتأثرهم بالكلمات وبالنظريات الذائعة ، وهم يرقبون منها المعجزات بسذاجة .

والواقع ان بيداغوجية الراشدين ضارة في حدود اتصافها بأنها « بحث نظري » ، ولا سيما بكونها بحثاً قبْلياً . وهي ناجعة في حدود شعور المعني بالحاجة الملحّة لاعادة التأهيل ، وقلقه من الدافع له للبحث عن معارف دقيقة يشعر بحاجته اليها . اما المعلومات التي تُصب على نحو قبْلي في

---

(١) Courtelinesque نسبة الى الشاعر الفرنسي (كورتلين) الذي عاش بين سنتي (١٨٥٨ – ١٩٢٩) وقد برع في الهجو المتهكم .

(المترجم)

الدروس أو في المحاضرات فانها تتميز بلانجوعها الكبير (الا من حيث اعتبارها عامل تشويش). أما طلب المعرفة بصورة ناشطة، فأمر آخر تماماً. وعلى هذا فان المهن التي تحتاج الى اعادة تأهيل لازبة فينبغي لها ان تجد مراكز معلومات مزودة بمكتبات متخصصة وببعض المستشارين حتى يجيبوا عن الاسئلة المطروحة في حال الحاجة. ومن العبث الاسراع برفدهم بالفلاسفة الشباب او بعلماء اجتماع او علماء اقتصاد ممن لم ينهوا حتى دراستهم، لكي يغدقوا عليهم دروساً نظرية.

ان سحابة من المستشارين تلف اليوم الاقتصاد الخاص، وهم يزعمون انهم « ينعشون »ارباب المشاريع ويعلّمونهم مهنتهم عندما يجعلونهم يشعرون بالخجل لترددهم في التجديد ولمخاوفهم من اصلاح البنيات ولتأخرهم عن (الامريكيين) أو (اليابانيين) بنتيجة عادتهم الماثلة في الاسراف بالنظرة القريبة والبسيطة الى رصيد اعمالهم في نهاية السنة، ولترددهم في تشجيع كاف للتواصل، لعلم الإعلام، للعلاقات العامة، وبخاصة لترددهم في الاستعانة باخصائيين في هذا التواصل الداخلي والخارجي. وبكلمة وجيزة، ان المستشارين المأجورين يظنون في جميع قطاعات الفاعلية — كما لو ان اصحاب المشاريع ليسوا بالتعريف في حال اعادة تأهيل انفسهم بأنفسهم بصورة دائمة تحت طائلة الموت.

ان اعادة التأهيل النافعة حقاً، والمستعجلة، هي اعادة التأهيـــل المعاكسة، اعادة تأهيل الممارسين للعقائديين. لقد كان دكتاتوريون قساة ساديون، من (موسوليني) Mussolini الى (كاسترو) و (ماو)، يلهون بارغام بيروقراطييهم، أو حتى وزرائهم، على الذهاب بصورة دورية للحصاد، وعلى انجاز دورات تدريبية في المصانع. والفكرة، بالطبع،

لا تروق « الباحثين النظريين » ابداً ، وقد القوا بالترجيح السيطرة على الآخرين بالكلام بأكثر من ان يكونوا تلاميذ الممارسين البكم . وقد أهمل المشروع ، بعد لأي قصير جداً ، وعاد اصحاب البحث النظري فعثروا على جنانهم وعلى طماحهم في تعليم اولئك الذين يعرفون عملياً اكثر منهم . وفي وسعنا ان نتنبأ ، بدون أدنى خطر ضلال ، بأن (ماو) ، على الرغم من ضخامة جسده ، لن ينجح اكثر من الآخرين ، وهذا مؤسف حقاً .

وبالرغم من ذلك يبقى الشيء البارز هو أن الباحثين النظريين انفسهم يشعرون شعوراً غامضاً بضرورة اعادة التأهيل المذكورة . وحتى عندما يشعرون في شعورهم السطحي بأكّلان الذهاب لتعليم الشعب ، فان لاشعورهم يقودهم بالاحرى الى ان يستمدوا منه دروساً . ان وراء التعاظم الماثل في « ارتداء بذة الكادحين » نوعاً من غريزة حيوية يمكن اكتشافها . ان الروائي الشاب لا يستطيع أن يكتب شيئاً اذا لم تعد تأهيله بعض قسوة الحياة . وان بطل « هكذا يمضي كل لحم »(١) الذي يتخيل اثر تخرجه من (اكسفورد) انه سيذهب لتعليم الاسكافيين المنشقين ما (التوراة) ، وتعليم اصحاب الحانات الليلية ما الاخلاق ، يلجأ بقسوة الى اعادة تربية نفسه بنفسه عندما يرغمه اقترانه المتهور بفتاة مدمنة على أن يكسب رزقه من مهنة متواضعة ، هي مهنة اعادة بيع الثياب المستعملة .

---

(١) Ainsi va toute chair

الفصل الخامس

الالفية الثقافية

لكلمة « ثقافة » معان ثلاثة ، الاولان منها لا تعنى بهما العقائدية .

أ – يرى الاتنولوجيون أن الثقافة هي جملة العقائد وضروب السلوك والتقاليد والتقنيات التي تنتقل في درب الوراثة غير – البيولوجية ، درب الوراثة الاجتماعية . فالثقافة تتميز ، على قدر سواء ، بعادات الطعام وسبل تنويم الاطفال وبالعادات الجمالية والاخلاق السياسية .

ب – بالمعنى الضيق ، ليست ثقافة الناس الذين يُسمون « مثقفين » ، بادىء ذي بدء ، الا سيطرة أفضل ووعياً أرهف بالثقافة العنصريـــة ، القومية ، وذلك بفضل دراسات تضاف الى النقل عن طريق المشاركة . وهذه الدراسات تستطيعها الطبقات المتميزة والتي تجد متسعاً من الفراغ . وهذه الثقافة تنطوي دوماً على معرفة التاريخ وآثار الماضي الكبرى . وهي بوجه عام جمالية بالدرجة الاولى . انها تمنح الحياة الحاضرة كثافة تحوّرها وتشحذ الشعور والوعي .

جـ – « الثقافة » ، باعتبارها صيغة عقائدية ، وانها تتردد في الخطب والمقالات بغزارة ، ولها وزارة ، وموازنة ، ودور ، وفترة اذاعية خاصة ، هي ايضاً شيء آخر . وقد بدت قبيل سنوات وكأنها في سبيلها الى ان تضحي اختصاصاً من (افينيون) Avignon مثل فالوذج (مونتليمار) (١) .

انها تتميز كل التميز عن ثقافة » المثقفين » . ومن الممكن ايفاد امرىء

(١) Nougat de Morntelimar

بمهمة رسمية ليعمل على تنمية الثقافة في بلدة أو في منطقة ، ولكي يحرك النشاط الثقافي ، مع أن هذا المرء قد يكون غير مثقف ، بالمعنى (ب) ، كما يتفق ان يكون كنسي محروما من الحس الديني .

ومفتاح الامر يرجع الى تآزر الظروف الاجتماعية التي اتاحت تطلعاً الى الثقافة ، بل ومطالبة بها نلفاها لدى الطبقات المحرومة من الدراسة ومن أوقات فراغ تكفي لاكتساب الثقافة (ب) . ويبدو الحرمان من الثقافة (ب) ظلماً اجتماعياً ، ولم يبق يعتبر قانوناً من قوانين الطبيعة . ومن الممكن رفع هذا الظلم وتقويمه شأنه شأن التفاوت في مستوى المعيشة أو العطل المأجورة أو الكرامة الاجتماعية . ان انقاص ساعات العمل و « حضارة أوقات الفراغ » ، كما يقولون اليوم بصورة تنبوئية ، يظهران أن من الممكن ، بل من الواجب ، تأمين الثقافة (ب) للجميع من اجل ملء أوقات الفراغ الملمع اليها .

وهذا المطلب مطلب مشروع حقاً . ولكنه ، لسوء الحظ ، وبسبب أنه تطلع مثله مثل كل تطلع يبدع حركية اجتماعية يمكن استخدامها ، انه يثير الانتباه المغرض ، انتباه تجار يتنسمون رائحة الزبائن من جهة ، ومن جهة اخرى انتباه الديماغوجيين الذين يرون في ذلك فرصة رائعة لاستدرار موافقة الحكومة على انفـاق اعتمادات وتحديد مناصب لهم ، واخيراً ، فانه يثير انتباه العقائديين الذين يهتمون على نحو آخر وينظرون الى تحريك النشاط الثقافي نظرتهـم الى ستار يخفي تحريك الاضطراب السياسي ، مع نكهة اضافية ماثلة في أن هذا التحريك انما تموله الحكومات التي تريد هي اسقاطها .

كانت السلطة الزمنية ، في العصور الدينية ، هي التي تنفق على السلطة

الروحية للكنيسة ، وكانت هذه السلطة الروحية في الغالب تضايقها وتنكد عيشها وتزعم السيطرة عليها بأن تذكّرها بواجباتها حيال الله . أما اليوم فان تدهور المنظومة الدينية التي كفت عن مدّ الطبقات الشعبية بثقافــة مستندة الى الدين جعل السلطة الثقافية مرشحة لشغل وظائف السلطة الروحية . وهذه السلطة الثقافية تطالب بنفس المزايا التي تتمتع بها (الدولة) ، وبنفس الحقوق على الدولة . ولو أدى ذلك الى جلد الحكومة ، أو عمل على هدمها ، فان على الحكومة ان تركع . ان شعار « انا الثقافة » لدى انصار الثقافة كشعار « انا الطريق ، والحقيقة ، والحياة » لدى القسس .

مسرحة الحياة الاجتماعية

يتسع المسرح ، بصورة رائعة لعملية مزدوجة (عملية تحريك النشاط الثقافي وتحريك الاضطراب السياسي) . فالمسرح الذي انبثق عن العبادة ، يرجع اليها . لقد انبثق عن القدّاس ، وهو يعود قداساً عقائدياً . ان المسرح ، بذاته ، يبدو امراً بسيطاً جداً ضمن جملة الفاعليات الاجتماعية . وينبغي ان نضيف اليه جميع فنون المشهد ، نضيف السينما التي تضاعفها التلفزة كما تضاف التعليقات اللاهوتية الى التظاهرات الثقافية التي تجري في تمثيليات ومعارض . ولكن هذه النظرة ما تزال نظرة سطحية تهمل الحادث الاهم في التمسرح العام للحياة الاجتماعية، التمسرح الذي يتيحه اليوم نجاح المجتمع الاقتصادي. لقد كفت الحياة، في نظر كثير من البرجوازيين عن أن تكون عوزاً. فمن الجائز ان نعيش على مستوى الدرجة الثانية في عالم رمزي. والحياة الرمزية لم تبق استثناء ، بل هي الحياة ذاتها . وان المرء ليقيم فيها ، ولكن

بدء من العالم الرمزي نمضي شطر العالم الاولي ، عالم البقايا . ان السينمائي يتنبأ بأن الوقت آت وفيه يكون لكل انسان آلته السينمائية المصوّرة كما ان له قلماً — الزوج والمرأة والاولاد يصوّر بعضهم بعضاً ، ويسجّل بعضهم اصوات بعض تسجيلاً مغناطيسياً — وهـذه الآلات المصوّرة والآلات المسجلة ليست هنا ادوات تصحيح ذاتي ، بل ادوات ثقافة اصبحت واعية بذاتها الوعي كله ، ومستقلة استقلالاً ذاتياً . ان الحياة المادية لم تبق سوى جملة آلات راضخة . لم تبق هناك مآسي عائلية او سياسية ، وانما توجد درامات نفسية أو درامات اجتماعية . لقد كان الناس فيما سلف يمتصون الثقافة امتصاصاً عفوياً ولا شعورياً . ولكن من الواجب الآن تعلم الثقافة واختيارها اختياراً حراً واعياً . وعلى هذا النحو يصبح في وسع كل امرىء أن يبرهن على كفاءتـه ، لا بموقفـه في وظيفـة أو في دور اجتماعي ، بالمعنى الذي قصد اليه (مرتون) Merton وعلماء الاجتماع ، بل في دور مسرحي .

لقد كان الارستقراطيون وحدهم ، والملوك ، قادرين على ان يمثلوا حياتهم على مستويين ، وكانوا هم الذين يختارون مواضيع ادوارهم المسرحية . وكان البلاط مسرحاً تجري فوق خشبته « باليه » دائمة . وكان (لويس الرابع عشر) يحسب نفسه ايضاً أنه (جوبيتر) أو (ابولون) ، وكان له ، بهذا الاعتبار ، جميع الحقوق على جميع الناس ، ولا سيما على جميع النساء ، مثل إله . أما السادة الكبار فكانوا أنصاف — آلهة . وبين كل حربين ، كان (لويس الرابع عشر) يأمر بأن يقام في (كومبين) Compiègne عرض عسكري ضخم مع تمثيل حال الحصار الحربي ، حتى يسلي السيدات . وكانت مصانـع السجاد المصوّر الكبرى التي اسسهـا (كولبر)

Colbert ، بوجه الاجمال ، هي الصناعة الخاضعة للحياة المتمسرحة ، وكانت هي التي تقدم الزخارف المطلوبة لحفلات « الباليه » . وفي وقت اسبق ، كان الملوك والفراعنة واباطرة الصين وملوك أفريقية السوداء لا يعيشون إلا على مستوى المسرحة الدينية ، وكان احدهم يأنف عن أن يطأ بقدمه الارض .

التحليل النفسي لأنصار الثقافة

الفكرة الكبرى لانصار الثقافة هي فكرة أن يفيد المجتمع كله مـــن الوضع المتميز الذي كان يرفل به مجاملو (فرساي) . وعندئذ تصبح الحياة الاجتماعية « باليه » أو مهزلة ، ويكونون هم مخرجوها . ولا يكون الصناعيون والتجار سوى القائمين بتشغيل الآلات ، ونصب الزخارف . وهم يهجرون دعوى كونهم العنصر الاساسي في التمثيلية . وبذلك يعاملهم الفنانون باحسان ، شريطة ان يتدبروا أمرهم لتقديم الزخارف بأسعـــار مخفضة ، وبدون إرهاق العمال . ومن المباغت ان نرى الى اي مدى تصبح المؤسسات والافكار المعاصرة التي تبدو سدى في المجتمع الاولي ، تصبح منطقية وطبيعية عندما نعتنق فكرة المجتمع – المسرح . ولا سيما اذا اخذنا بعين الاعتبار أن التنظيم المسرحي الجديد لا ينبغي أن يقتصر على التمثيلية نفسها ، بل ان عليه أن يبدلها ويمضي الى نوع آخر ، ويتكفل ، في فترة بعد الظهر ، باجراء التمرينات على العرض القادم . من العبث مثلاً ، على ما يبدو ، إعداد الشباب ، لا من اجل مهن ووظائف نافعة للمجتمع ، بل تدريبهم ، على العكس ، على تحريك الاضطراب السياسي ، وعلى الثورة القادمة ، أو على البحث الثقافي عن الكماليات في الموسيقى ، في الفن المعماري ، في تخطيط مدن المستقبل ، ومن العبث ، على ما يبدو ،

أن تسهر الحكومات ويسهر المجتمع الاقتصادي بأسره على اعداد صنّاع الهدم المقبل .

ولكن انتقالنا الى فكرة المسرح الاجتماعي ومفرداته يجعل كل شيء يصبح سوياً . ان خلق وظائف هو خلق « أدوار » درامية أو هزلية . اننا لا نختار البتة العدد الكافي من الممثلين ومن الممثلين الثانويين لأن من الجائز تعبئة المجتمع برمته من اجل العرض . الاشياء والبضائع هي « الملحقات » ؛ والبيوت والمدن « زخارف » ؛ والعمال والفلاحون ومديرو عملهم هم القائمون بتشغيل الآلات والملحقات . أما التجار فانهم موزعو السكاكر والحلوى . والمواطنون هم الممثلون الثانويون أو رجال الجوقة . ولكن أنصار الثقافة من سينمائيين ومخططي مدن ، ومهندسين معماريين ، يرفدهم علماء النفس وعلماء الاتنولوجيا وعلماء الاجتماع ، المتكتلين في معامل الابتكار ، يصبحون ، هم ، مؤلفي المسرحية .

ان من ينظر نظرة نفعية تافهة ، ويعنى بصورة تافهة بالمصلحة المادية للشعب (الفرنسي) ، يبدو في نظر هذا المسرح الذي كان ماثلاً في بلاط (فرساي) ، يبدو كائناً نافلاً كمالياً باهظ التكاليف ، مثل تحفة تقتنى بثمن غالٍ من عرق الفقراء والبائسين . لقد كان رجال الدين الصارمون ينفون عن المجتمع الممثلين الهزليين . وفي وسع الديمقراطيين الصارمين اليوم أن يتهموا « انصار الثقافة » بأنهم فارون من الوظائف الاجتماعية النافعة جميعاً ، وبأنهم ليسوا حتى مضحكي الآخرين ، بل انهم اناس يحملون المجتمع على دفع نفقة لهوهم الخاص . ان التضحية بكل شيء في سبيل الزخرف ، والثقافة ، المسرحية أو غير المسرحية ، في سبيل الكلمات ، والمواقف ، والاقنعة ، والرموز ، والمظاهر الكاذبة ، إن ذلك يعني وضع

المجتمع وضعاً مقلوباً . ولكن انصار الثقافة يجيبون : هل المجتمع هو الذي يغدو مشروعاً مسرحياً وثقافياً كبيراً ؟ وعندئذٍ نتساءل : ما الوضع الصحيح وما الوضع المقلوب ؟ من الطفيلي بالنسبة لمَن ؟ من ذا الذي يلبس القناع اذا كان تمثيل الدور الثقافي يصبح هو الوظيفة الاجتماعية الحقيقية ؟ واذا كان العيد يستمر السنة كلها ، ويمس الناس كافة ، كف عن أن يعارض العمل ، وغدا العيد هو العمل الحقيقي . أترى (فرنسة) كلها هي التي اخذت تعيش عيش بلاط (لويس الرابع عشر) وتلبس الاقنعة تبع المنظومات العقائدية المختلفة كما كان رجال ذاك البلاط يلبسون أقنعة الآلهة والابطال الاسطوريين — وعندئذٍ يصبح اعداء (الثقافة) هم الاعداء — القبيحون — للديمقراطية — الصحيحة ، لانهم يمنعون « الصغار » من أن يلعبوا كما يلعب سواهم .

البرجوازيون الفريسيون ، بدون عبقرية ، قضوا على (فرساي) ليخلقوا (باريز) الصناعية ، المملّة ، المزدحمة ، التي لا يطاق العيش فيها . أما انصار الثقافة منظمو المسرح الاجتماعي فانهم ، على العكس ، سيجعلون من (باريز) ومن (فرنسة) كلها ، نوعاً من مجتمع جمالي ، نوعاً من بلاط (فرساي) شامل موصول .

هنا ينبغي ان نميز مرحلتين : المرحلة النهائية ، الطوباثية ، وقد أصبحت حقيقية ، والمرحلة الانتقالية ، وهي عقائدية بوجه اخص — ما دامت العقائدية على الدوام طوباثية في حال التشكل وحال المشروع ، كما ان الطوباثية هي العقائدية المتبلورة . ومن الواجب في المرحلة الانتقالية ألا تكون مسرحة المجتمع جمالية خالصة . ينبغي ان تكون الدرامة الاجتماعية درامة حقيقية ايضاً ، ان يكون « تخيل الفعل » فعلاً حقيقياً . ان (المسرح

ـ العيد) هو مسرح مثيري الاضطراب ، وهو ينزلق بكل هدوء نحـــو تحريك الاضطراب في الشارع . والنظارة الشعبيون يشاركون بالتدريج في الفعل الدرامي . انهم لا يقتصرون على الاستيلاء مجدداً على (الباستيل) بصورة رمزية ، بل يتجهون ، بتحريض « الثقافة » ، نحو قلاع الباستيل الراهنة : البورصة ، المصانع ، المصارف ، ويهبون لحرقها ليمهدوا الطريق ويفسحوا المجال ، على هذا المنوال ، أمام « المنتجين » الثقافيين لـــكي يقيموا زخارف جديدة .

هناك سابقات تاريخية . ان الاعياد الاجتماعية تجنح في الغالب الى تجاوز الرمز حتى تصبغه بصبغة الواقع . فـ« القرابين » الدينية أو السياسية ذات تأثير عظيم اذا سفك الدم فعلاً ، دم الاضاحي ، الحيوانيـــة أو البشرية : ذبح (الازتك) Aztèques الاسرى فوق (اهرام الشمس) ؛ القرابين في مذبح (مولوخ) Moloch ؛ العبادات المختلفة ، العشقية ـ السادية ، في الديانات الشرقية القديمة ؛ ألعاب الملعب الروماني ، مـــع محكومين حقيقيين بالاعدام ؛ وفي الماضي ، بعد حفلة اقامة الدعوى أمام محكمة التفتيش ، حفلات المقصلة في ساحة الثورة ، وحتى الجماعة الهيبية فانها أمست جماعة اغتيال « الخنازير » اغتيالاً شعائرياً . اننا نتصور اليوم قيام المسارح ـ الافعال حيث ، مثلاً ، خشبة المسرح تمثل محكمة شعبية ، فيها رأسماليون حقيقيون ، أو « فاشيون » يصار الى الحكم عليهم ، ثم الى ذبحهم حقاً ، في جو اخراج عبقري . ان ذلك فرصة عيد للعيـــون وللقلوب ، تركيب سعيد يضم مسرح تحريك الاضطراب الى مسرح القسوة ، يضم العيد الشعبي الى الثورة المبدعة .

اما المرحلة الطوباثية فانها أمر غزلي : انها الانسجام الشامل . والكلمة

المهمة هنا هي كلمة : « شامل » .

الشمولية الجمالية

هناك تجاذب طريف بين عقائدية انصار الثقافة وبين الشمولية(١) الجمالية — السياسية كما تبدو اليوم بصورة جلية تماماً في تنبوءات الفنانين التقدميين. وهنا أيضاً تترافر السابقات . فالباحثون يجنحون للاعتقاد بوجود شمولية سلفاً في المنظمات الأولية التي شادها اصحاب النصب الحجرية(٢). وكان ثمة شمولية جمالية في (رومة) الامبراطورية ، وفي (بكين) في العصور السعيدة (للصين) كما كانت في بلاط (لويس الرابع عشر) . ولكن هذه الشمولية كانت تعتمد الاسطورية اساساً بأكثر من اعتمادها العقائدية . وانما شرع العقائديون ، بدء من القرن التاسع عشر ، يحلمون باعادتها بمبادئهم الخاصة ، العقلية أو « العلمية » . ان لمذاهب (كونت) و (سان سيمون) و (فوريه) جانباً ثقافياً وجمالياً قد يكون اكثر اهمية من جانبها الاقتصادي — السياسي . وقد أثار (فاغنر) Wagner حماس (نيتشه) الشاب الذي رأى بعث المسرح الشامل الاغريقي ، وهو مسرح موسيقي واسطوري ، رأى بعثه في المانية ، بحيث يعاد خلق الشعر المأساوي ، في جو العظمة القومية للتوسعية الجرمانية .

وقد يكون من السذاجة التغافل عن الفكر « الشمولي » — بجميع معاني الكلمة — لدى العقائديين أنصار الثقافة ، في فن المعمار ، في موسيقى « المشاركة » ، في الرسم العمراني ، في مخابر الثقافة التجريبية ، فهذه

---

(١) Totalitarisme

(٢) Mégalithes

العقائديات ترمي الى ثورة جذرية في جميع مجالات الحياة الانسانية . انها تمشي نحو ألفية(١) ثقافية .

ان « الفكر الفني الجديد » لا يضطلع وحده بتركيب الفنون ، انـــه تشكيلي – اجتماعي . انه يريد برمجة شاملة للحياة في محيطها ، للانسان في المدينة (السبرنتيكية) وفي الكون . لقد مات رسم منصة الرسم(٢) ، معمار منصة المعمار »(٣) . والفنان الشمولي ، أو الباحث الثقافي ، هو صانع كون جديد يمكن اخيراً ان يعاش فيه . انه يستعين بفرق من الاخصائيين ويصنع المستقبل باختراع الحلول الانسب ، بما يحقق الجمال مع النجوع الاجتماعي بآن واحد » . وهو ايضاً يجاوز الفنون والمؤسسات الفولكلورية . ان الفن والعلم ، ولا سيما علم الإعلام ، « يتحدان » . ولقد « انقضى زمن الفنان المجنون ، المدمن ، المتشرد »(٤) .

وبدون فرق الاخصائيين الالكترونيين لم يبق للفنان أي حظ . إن عليه أن يتصرف بوسائل اكثر أهمية جداً من وسائل فنان الامس ، وسائل تقدمها الصناعة الكبرى ، ولا سيما الدولة . ان الموسيقار ، الفنان التشكيلي ، يحتاج الى معامل حقيقية ، بل والى مصانع . وبهذا الاعتبار ، سيحدث

---

(١) Millenium

(٢) De Chevalet

(٣) نيقولا شوفر : الفكر الفني الجديد – (غوتيه ١٩٧٠ ص ١٥) وهو يستوحي من (ر.ب . فولر) R.B. Fuller في نظريته القائلـــة بالمدن الرباعية وبالقباب المماثلة لقبة الكرة الارضية .

Nicholas Schöffer: Le nouvel esprit artistique-(Gauthier 1970)

(٤) المصدر السابق ص ١٠٨ .

الفن » الذي ستكون لديه وسائل آخذة بالاهمية لاجل ضمان توسعه الخاص ، سيحدث توجيهاً نيكنتروبياً للتطور الانساني ، وسيفتح الباب امام احداث زمنية جديدة ، ان لم نقل احداثاً لازمنية »(١) . وبوجه الاجمال ، مات الله ، ولكن الفن الجديد سيبعثه مرة اخرى .

المادية التاريخية و «المسرحة التاريخية »

ان سيادة « الفكر الفني الجديد » تمضي تماماً في منحى مسرحة المجتمع . ونحن نتخيل ، آخر المطاف ، المجتمع بأسره وقد بات في وسعه ان ينهك نفسه في عالم اعلى ، عالم (الثقافة) ، عالم الفاعلية الرمزية واللغوية ، في « المجسم العقائدي » ، مثلما كان (سقراط Socrate) في سلته في « السحب »(٢) ، أو مثل (اللابوتيين) في جزيرتهم الطائرة ما دامت الحياة المادية بكفالة تنظيم المطاعم المجانية ، ودور الولادة والحضانة المفتوحة للجميع ، والبعثات الدراسية والثقافية الممنوحة للجميع ، ولا يدفع تكاليفها أحد – لان المال يصادر من الاتحادات الاحتكارية ، التي أذعنت للذبح ، وهو مال يكفي الجميع .عندئذٍ تصبح الحياة الاجتماعية لعبة في الدرامة الاجتماعية ، وتصبح الحياة العائلية لعباً في درامة نفسية ينهض بأدوارها « ممثلون غير محترفين » .

ان عقائديي أنصار الثقافة يحسبون انفسهم (ماركسيين)أو (ماويين) ، في الوقت الذي يتجاهلون فيه تجاهلاً سمجاً ما هو سليم وحقيقي لدى (ماركس) أو (ماو) ، أي ، إن لم تقل المادية التاريخية ، فعلى الاقل

(١) المصدر السابق ص ١٠٥ .

(٢) Νεφέλαι

الاعتراف بالاهمية الضرورية الأولى لقاعدة الانتاج الحقيقي ، الصناعي أو الفلاحي . أجل إن الفاعليات غير الاقتصادية ، ولا سيما الفاعليات الفنية ، هي بلا ريب ضرورية ايضاً ، وذات قوام . ولكن من الجائز الاعتراف بذلك ضد الارثوذكسية الماركسية الضيقة ، بدون أن نمضي الى درجة أن نجعل « المسرحة التاريخية » تحل محل المادية التاريخية .

اننا نسخر اليوم من المأساة المدرسية ونأخذ عليها لاوعيها الاجتماعي — اذ الابطال لا يأكلون ، ولا يلمحون الى طرق كسب رزقهم أبداً ، بل يلقون الخطب عن الحب وعن السياسة في اثير مثالي ، وكأنهم وراء عالمنا الارضي . والرائع في الامر أن الذين يكثرون من الهزء بهذا اللاوعي القديم هم الذين يكررون تماماً الالعاب الارستقراطية نفسها ، مع التغافل السامي نفسه عن الارض الصلبة التي تحملهم .

الشمولية الثقافية الشرعية

وعلى الرغم من ذلك ، لا بد من الاعتراف بأن الثقافة الشمولية توقظ أيضاً لدى اناس أعقل ، الحنين الشرعي للشموليات العريقة ، ذات الاساس الاسطوري ، وفيها كانت الحياة الانسانية بأسرها تتميز بالاهمية وبالاسلوب . ومن باب التعالم ، ولكن لا من باب العبث ، الكلام على دور نيكنتروبي (أي دور « مضادة التنظيم ») في الفن والثقافة ، وهو دور اعظم ارتباطاً في التاريخ على الاغلب — وعلى عكس ما يذهب اليه تفكير فناني الثورة — اعظم ارتباطاً بالسياسات المحافظة من ارتباطه بالسياسات الهدّامة .

ان الفن ، والحس الجمالي ، يلعبان في الثقافات التقليدية السليمة دور البشرة في العضوية . وان نضارة البشرة الحية دليل الصحة الجيدة .

وفي الوقت ذاته ، تحقق البشرة حماية ناشطة ضد الفيروسات والجراثيم الفتّاكة . وكل عدوان يصيب هذه البشرة يكون بآن واحد عرّض للمرض الاجتماعي وعامله . فمن الخطر أن يفقد شعب الاحساس بالاسلوب الخاص بتقاليده ، ان يفقد حاسة الحشمة وتذوقها ، حاسة صيانة الزخارف وتذوقها ، وذلك في شعائره الاجتماعية ، وملبسه ، ومسكنه . ان الاحجام عن اعادة صنع الرسوم والاصبغة يعدل حكماً على الجدار بالادانة . ويعلن القبح في تخطيط المدن وعدم المبالاة بهذا القبح عن أوبئة قتّالة . ان قبح القرية ينم عن اهمال الارض . وان « الشوارع بلا مرح » ، وهي في الغالب تحمل اسماء محترفي السياسة أو العقائديين وهي اسماء تحل محل الاسماء الخلاّبة القديمة من طراز «شارع التلة المرتفعة»(١) او «شارع القدر الحديدية»(٢) او الشوارع المرقمة في « نيويورك » ، انها شوارع تعلن عن قتل الآلهة الحامية وان شياطين شريرة تؤذن بالظهور .

ان ما حسبه (فبلن) Veblen «استهلاك تبجح» انما هو في الاغلب شيء آخر : انه جهد شبه غريزي للحفاظ على بشرة اجتماعية واقية . وان الوظيفة الكامنة للكماليات التقليدية هي وظيفة احتفالية . انها ترمي الى ان تصون — فوق الوظائف الجمعية الممكنة والمبعثرة — المظهر الحي لعضوية يترتب على ظاهرها الجمالي أن يصرف الانتباه عن انها آلة هضم ، آلة دوران ، آلة عضلية مبنية فوق هيكل عظمي . ولزينة الدعاوة في الحوانيت شيء من هذا الدور ايضاً — وهذه الزينة تفتقد بصورة رهيبة في البلاد الاشتراكية . وقد يكون من المضحك ان نعتبر ثياب القصص الاحتفالية ،

(١) Rue de La Haute Montée

(٢) Rue du Pot de Fer

والاردية الرسمية للقضاة والاساتذة ، نعتبرها تبجحاً بالثروة ، في حين انها تمثل الزاماً مهنياً يتحرق المعنيون لهفة للخلاص منها طلباً لتيسير حركتهم واو على حساب النظام الاجتماعي . وكذلك فان من غير المعقول كثيراً ان ننظر بعين اجتثاث الوهم الصوفي التي تنظر بها الجذرية الفبليتية أو الماركسية أو الفرويدية الى العادة القديمة للسادة الانكليز في المستعمرات حين يرتدون لباس السهرة لتناول العشاء في حرارة بدرجة ٤٠ في الظل — وكذلك اعتبار أن من « التبجح البرجوازي » نشر أغطية السرير من النوافذ أو وضع الورود في الشرفات يوم الموكب .

ولذا لا يمكن إلا الموافقة على الغرض البعيد الذي تستهدفه العقائديات الجمالية . ان طماحها الشمولي هو في الواقع المثل الاعلى السوي لكل فنان ينظر الى ابعد من منصة رسمية ، أبعد من الورقة التي يسوّدها فوق منضدة المقهى ، ابعد من دخان لفافته ، بل أبعد من المسرح الصغير الذي ستمثل فيه مسرحيته التي انهى تأليفها . من السوي ان يحلم بمدينة قد يعيش فيها الناس عيش الجمال ، ويحلم بمجتمع ذي بشرة سليمة ، يحلم بطبيعة قد تشبه حقلاً جميلاً أُجيدت صيانته ، مثل املاك (ارنيم) Arnheim التي تخيلها (ادغار بو) Edgar Poe . إن الباحث الجمالي ، بالتعريف ، باحث سطحي ما دام يطلب « المعبّر » . ولكنه سطحي مثل الحياة العضوية ذاتها وهي ، بالازهار ، بالريش الجميل ، بالشعر المزخرف ، تجعل النباتات والحيوانات لا تبدو بعضها امام بعض إلا في أبهى حلة وتجعل بعضها تخفي عن بعض آلاتها الداخلية واحشاءها .

« متعددات الاجزاء »(١) الثقافية المركزية

ولكن العقائديين الجماليين يتناولون الامر بصورة غريبة لتحقيق غرضهم العظيم . انهم اشبه بطبيب يصبغ بالحمرة وجنتي مريضه المصاب بفقر الدم حتى يعيد اليه صحته . ان فرق الفنانين التقنيين العاملين في معامل أو في مخابر الابتكار قد يصنعون بصورة مشتركة نوعاً من ثقافة تركيبية تشبه المركبات المتعددة الاجزاء التي تنتجها الكيمياء الحديثة ، ثقافة من نوع البوليستر (٢) او السيليكون(٣) ، بدءاً من عناصر جزيئية أو من « سكاكر عطرية ثقافية » مؤلفة من اجزاء متساوية من موسيقى الكترونية ، ومن معادن ومن مرايا باعتبارها دوافع محركة ، ومن اشارات لاشكلية وكتابات أو رسوم آلية ، ومن حركات شبق وأعمال ثورية . وبدءاً من هذه « الحلقة » المتعددة القيم التي يصنعها الفريق صنعاً محكماً يمكن الانتقال الى الثقافة بمقياس « السلّم الكبير » ، الى المدينة التركيبية والشمولية التي ستكون بمنأى عن جميع اخطاء المدن الطبيعية ذات البعد الوحيد ، ما دامت الحلقة المصنوعة ستحتوي سلفاً بصورة أولية على : فن ، وعلم ، وسياسة ، وحبش ، واعياد ، وحلم ، وحبور .

وستكون المراحل المتوسطة ، بادىء ذي بدء ، بيوت الثقافة والجامعات المستقبلية حيث ستتم التجمعات الاولى (بطريق نظام تعدد الاختصاصات) « للسكاكر العطرية الثقافية » — مصانع بعد المحترف —(٤) — قبل بلوغ المشغل(٥) الكبير الشمولي ، البناء الضخم ، حيث سيترعرع النظارة —

---

(١) Polymères (٢) Polyestres
(٣) Silicones (٤) Atelier
(٥) Chantier

الممثلون القادمون للمسرح الاجتماعي الكبير ، في المدينة «السبرنتيكية » .
ان محترَفات الابتكار ستنتج بضعة كيلوغرامات من الثقافة ، والجامعات التجريبية تنتج بضعة اطنان ، والمدينة القادمة تنتج ملايين الاطنان . ذلك أن الثقافة تبدو في هذا المنظور نوعاً من مادة سحرية أشبه بزبد « البوليوريتان »(١) الذي كان النحات (سيزار) César يبيعه الى الجمهور بشكل قطع صغيرة يوقع باسمه عليها في زمن « انتشاره » .

ولسوء الحظ ، اذا فهمنا فهماً جيداً حماس الفرق المكوّنة ، ادركنا على نحو اسوأ محاسن هذه الثقافة التركيبية بالنسبة لجملة السكان . ففي مرحلة « الجامعة » ، لا يقدم المنظور الجمالي سلفاً وعوداً كثيرة مشجعة . بل اننا نفاجأ بمرأى أن انصار المذاهب الجمالية المتقدمة لا يتذوقون إلاّ قليلاً جمال اطار حياتهم—كما لو ان الجمالية العقائدية كانت تمضي باتجاه يضاد الذوق الجميل الاولي ، كما تمضي البيداغوجيا العقائدية ضد الحس التربوي العفوي . فاذا بنيت مدينة المستقبل بحسب هذا الانموذج ، صارت أقبح حتى من مدينة صناعية وتجارية حيث نجد على الاقل ان الاهتمام بجلب الزبائن يرغم التجار على جهود النظافة والتزيين .

لماذا نطلق اسم الثقافة ، ولماذا نوحّد هوية الثقافة بهوية هذا الانتاج الخاص ؟ ان في مكنة فريق من الفنانين والتقنيين أن يصنع في الواقع ، وهو يسيء الى الصناعة الخاصة والى « خردواتها » ، يصنع «خردوات» جمالية قد تكون في الحق أصيلة في بعض الاحيان وتحدث بغرابتها صدمة نفسية . ولكن لماذا نعلي من شأن هذا النوع من الانتاج بضربه بمثل « ثقافي » خاص ؟ ان هذه الانواع من الانتاج ثقافية مثلما يتصف بديل

(١) Polyurétane

القهوة ، في زمنَ الحرب ، بأنه « قومي » . انها ثقافية لأنها نتاج محترفات رسمية ، نتاج فرق تميزت بفن نوال الشهرة ، لا عن طريق البدء بما يرضي الجمهور ، بل بطريق الالتجاء الى مؤسسات ، وهـــذه المؤسسات هي المعادل الحديث للمجامع ، وفي هذه المؤسسات تسود « روح ارثوذكسية » جديدة ، نزعة مجمعية جديدة تضاد الروح – المجمعية ، تسود برجوازية جديدة تضاد البرجوازية .

الثقافة والتاريـــخ

ان أجرأ ضروب التزييف يعجز عن ألا تكون الثقافة ، بالدرجـــة الاولى ، بالمعنى (آ) ، تقليداً قومياً ، عنصرياً ؛ وبالمعنى (ب) ، وعياً تاريخياً بهذا التقليد . ان ثقافة المثقفين تقوم على اساس التاريخ . والتاريخ جوهر كل ثقافة ، كما هو جوهر كل حكمة اجتماعية . وهذا ما يرسم امام الديماغوجية العقائدية حدوداً ضيقة . لم يبق ثمة أي طريق ملكي ، أي درب مختصر امام الثقافة التاريخية ، كما هي الحال امام العلم . وعلى الأقل ايضاً لانه قد يوجد علماء شباب ، ولكن لا يوجد مؤرخ حقيتي شاب . فاذا لم يتوافر الوقت والفراغ للدراسة وللتمثل البطيء للمعرفة التاريخية التي تتناول الماضي القومي وماضي الانسانية ، في المجالات كل المجالات – ماضي الحوادث وماضي المؤسسات – لا يكون المرء مثقفاً . وهذا امر مؤسف جداً بالنسبة للذين يستغرقون في العمل أو في الشغل اليومي . بل ان هذا ؛ يعني ، هو اخطر ضروب التنافر كلها ، تنافر قدرات الانسان وحاجات المجتمع الوظيفي . ولكننا لا نستطيع تبديل هذا الواقع . وكذلك فاننا اقل قدرة على تبديل الواقع بالنسبة للعلم ؛ فالذاكرات الالكترونية لا تستطيع ان تحل محل المشاركة الداخلية في التاريخ .

والامر يبدو بجلاء عندما يريد أنصار الثقافة ، بدافع الحماس العظيم أو بدافع السعي الى المراوغة أحياناً ، يريدون ان يقدموا للشعب ، في الفاصل بين تمثيل مسرحيتين حديثتين ، يقدموا له مسرحية مدرسية لـ (اشيل) Eschyle أو (شكسبير) Shakespeare أو (كالدرون) Calderon . يقولون ان للآثار الادبية القديمة فائدة سرمدية ، ولكن من العسير استشفاف ذلك اذا لم يدرك المرء في الوقت ذاته القرينة التاريخية . ماذا تستطيع « الفرس » او «راهبات باخوس»(٢) أو « الجندي المضحك »(٣) ان تقول لمن يجهل كل شيء عن تاريخ اليونان القديم أو تاريخ (رومة) ؟ ان المؤلفين المدرسيين القدامى يأسرون لب المؤرخين وعلماء الآثار ، ولكنهم ، بذواتهم ، خارج التاريخ ؛ انهم يبعثون ملل الجمهور ، والجمهور يتساءل عم يستطيع المثقفون أن يكتشفوه لديهم . ان المتعة متعة ضئيلة ، تلك التي يشعر بها من يقرأ (بلوت) Plaute بل وحتى (فرجيل) Virgile اذا لم يكن المرء اخصائياً في تاريخ (رومة) القديمة .

اجل لقد كانت (التوراة) مقروءة حقاً ، وكانت تصلح غذاء الطبقات كلها لدى الشعوب البروتستانتية . ولكن ذلك يرجع الى ان (التوراة) ليست كتاباً . انها أدب تام يمتد خلال قرون . وان معرفتها والاغتذاء بها يعدل ، بوجه الدقة ، تعلم تاريخ — قرينة ، التاريخ الذي ينعش كل سفر من اسفارها ، بهذا الاعتبار . ان انصار الثقافة المعاصرين لم يفهموا

---

(١) Perses مأساة لـ (سوفوكل) تعرض يأس (كسرخس) بعد كارثة (سالامين) .

(٢) Bacchantes اشهر مأساة لـ (يوريبيد) تعالج موت (بانته) الذي مزقته راهبات باخوس لانه قاوم عبادة (ديونيزوس) .

(٣) Soldat Fanfaron ملهاة شهيرة لـ (بلوتس) (ق ٢ ق . م) .

البتة هذا الجوهر الثقافي ، وهو أن تكون الثقافة تاريخية ، لا عقائدية .

ان شعار أنصار الثقافة : « الاصالة قبل كل شيء . تحاشوا الاشياء المدرسية كلها ، تحاشوا كل ما هــو شائع . لا تصنعوا البتة شيئاً لما هــو مصنوع » ، هذا الشعار ينم ، على ما يبدو ، عن جهد شجاع . انه في الواقع شعار اليسر . فهو يعفي من معرفة أي شيء ، باستثناء « ما يمكن ان يُصنع » (في النوع « الاصيل » المقبول بصورة مبتذلة) . « خذ الفصاحة ودقّ عنقها » ، كان هذا شعار الدعوة الى الشعر المحض ؛ « خذ التاريخ ودقّ عنقه » ، دعوة الى الصحافة . بيد أن الفن المثقف ، ولكنه الصحيح ، لم يشبه البتة هذا النوع من الجرّافة(١) . وانما كان ، على العكس ، يطلب دوماً الافادة من الثقافة القومية ، العنصرية ، ومن تحقيق ذاته في ضوء الثقافة الشعبية التي ما زال من الممكن العثور عليها عند طلبها . وقد فعل ذلك الموسيقاريون الروس والتشيك والاسبان ايضاً في القرن العشرين . وكذلك المهندسون المعماريون الذين انتبهوا ، على الاقل ، الى الاساليب المحلية وعنوا بها بأكثر من عنايتهم بالتعاليم الرتيبة لل « الحركية – المكانية » أو « للاتجاهية الزمانية » .

●

اجل ان الفن الشعبي لا يوجد في حال محضة كما حسب (هردر) Herder والابداعيون . وقد اوضح (هـ . دافنسن) H. Davenson (وهو

---

(١) Bulldozer

ﻫ. مارو) H. Marrou بصدد الاغنية الشعبية الفرنسية(١)اننا عرضة للخطأ وحسبان ان اثراً عالماً أصبح شعبياً هو من الفولكلور الصحيح . (« كان لي صديق »(٢) هي من وضع (اوهلاند) Uhland ويرجع تاريخها الى سنة ١٨١٥ و « في ضوء القمر »(٣) نغمة باريزية من سنة ١٧٧٥) .

ان احدث المحاولات الرامية لتحقيق مدينة حقيقية مؤسسة على ايمان مشترك تلتقي حوله كلمة الشعب كله بكل ما يراه كل واحد من الناس على انه الامر الجوهري ، وهو ألا تنفصم العرى التي كانت تربط « اعلى تقنية الذكاء بكتلة الشعب »(٤) ، — كانت هي المدينة في العصر الوسيط .

ثم علينا ألا ننسى ان مدينة العصر الوسيط كانت « طفلة يربيها عجوز » ، وان (القديس توما) St. Thomas كان ارسطاطاليسياً ، وأن « رواية ثيبة »(٥) كانت من الفن العالم الذي يختلف اشد الاختلاف عن اغاني الحكايات(٦) . وانما تستطيع المجتمعات العريقة في القدم ، وحدها ، الاستغناء عن التاريخ ، وهي تعيش في اساطير خارج التاريخ : التقاليد فيها حياة ، وليست فكراً . وقد غدت الثقافة ، في جميع الاحوال ،

---

(١) ﻫ . دافنسن : كتاب الاغاني — (نيوشاتل ١٩٤٦) .

H. Davenson: Le livre des chansons-(Nowchatel 1946).

(٢) Ich hatt'einen Kameraden

(٣) Au clair de la Lune

(٤) المصدر السابق ص ٣٢ .

(٥) Le roman de Thèbes

(٦) Chansons de Toile تسمى بالاصل اغاني التاريخ وتتميز بأن النسوة ينشدنها وهن ينسجن على النول . (المترجم)

بدء من (الانبعاث) ، ومن المطبعة، غدت مؤرخة . ويشعر المثقفون بأنهم منبتون عن الشعب . وصارت الثقافة «لباساً انيقاً يرتديه المرء فـــوق كيانه » ، ولاسيما حين تكون الثياب ، كما هي الحال في (المانية) وفي (روسية) ، في عصر الانوار ، ثياباً أجنبية ، هي في مثالنا ثياب فرنسية(١) وبالرغم من ذلك فان الانفصال بن الشعب والنخبة لم يكن البتة انفصالاً تاماً . وفي (فرنسة) على الاقل ، لم توجد نخبة مغلقة على نفسها كل الاغلاق. نخبة تحتكر الثقافة الرفيعة . كان المجتمع الريفي يضم نبالة مبعثرة ، برجوازية رجال قانون ، كهنة واسعي المعرفة احياناً . وكان المجتمع الحضري أيضاً مزيجاً من الناحية الثقافية ، بتهذيب مدني اكبر ، وانفصال اقل بين الاحياء الشعبية والاحياء البرجوازية والاحياء الارستقراطية .

●

أما ان ينطوي مفهوم الفن الشعبي على بعض وهم على طر قة (بيغي) Péguy فهذا أمر جائز . والثابت ايضاً ان انصار الثقافة العقائديين، « عجترفاتهم الابتكارية » ، يفصمون فصماً منهجياً عرى الروابط الاخيرة التي تشدهم الى التقاليد الشعبية والعنصرية كلها — مع الافصاح عـــن طماحهم بثقافة ديمقراطية . انهم لا يعتبرون « الشعب » إلا وقود الثورة أو مادة الصيرورة . وفي تلك المحترفات يعمل أنصار الثقافة من الاجانب بنسبة اعظم مما يعمل العمال في المصانع الصناعية ، وهؤلاء الانصار من الاجانب ومن الفرنسيين الحديثي العهد الذين لا يجيدون في الغالب النطق بالفرنسية وقد وصلوا (باريز) مباشرة بدون أن يعيشوا في المحافظات وبدون

---

(١) المصدر السابق ص ٣٣ .

ان يحتكوا بالنخبة المحلية بل انهم وصلوا يصحبهم خدمهم أو خادمات منازلهم وهم يتحلون بعقلية المهاجرين أو المستعمرين .

ولا يزال من الجائز ان يلتقي تيار الثقافة العالمة (ب) بالتيار المعاكس، تيار الثقافة العنصرية (أ) . ولكن تيار الثقافة العقائدية (حـ) وحيد الاتجاه . انه « يلقّن » ، « يطلع » ، « يعلّم » ، وهو بوجه خاص ، « يحرك الاضطراب » . انه يعتمد احياناً صياح الجمهور وصخبه وكأن ذلك مصاحب أو نوع آخر من آلة اتفاقية طارئة . ولكنه لا يتجشم البتة عناء الاصاخة اليه باهتمام وتعاطف كيما يستلهمه ويتعلم منه . ان هذه الثقافة شبه ـ الديمقراطية هي اكثر الثقافات ارستقراطية أو ترفعاً . وان دافعها الحقيقي هو القدرة على ازدراء الاجيال السابقة والاذواق العفوية للجمهور الحالي ، معاً .

قيمة الفن التجاري

ان الفن العقائدي يعارض بعنف الفن التجاري . وهو يفضل ، مثل الاقتصاد التخطيطي ، المصفاة السياسية على مصفاة السوق الاقتصادية ، وهذه المصفاة الاقتصادية قد ترغمه على الرضوخ لـ « تسويق » مذل ـ أي قد ترغمه ، بعبارة اخرى ، على مراعاة اذواق جمهوره . وفي الواقع ، من الايسر الفوز بموافقة وزير ، أو موافقة فريق صغير من انصار الثقافة ، الموجودين سلفاً ، عن الفوز باهتمام الجمهور . ان السينمائيين ، مثل المهندسين المعماريين ، يشعرون باهتياج عصبي لاحتياجهم ، لسوء الحظ ، للرأسماليين الذين يحرصون بالطبع على استرجاع اموالهم ، ومع الارباح المجزية إن امكن ، وذلك بالنجاح التجاري . وكل فنان شاب ، إن كانت

لديه فكرة يمتنع تجسدها بدون مال ، ولم يك يملك هذا المال ، فانه يشعر بأن المجتمع سيء الصنع ، وان على وزير الثقافة أن يموّل فلمه التجريبي ، او « اوبراته » الرباعية ، وأنه كان من واجب وزارة التربية الوطنية ان تهيء له ، باستخدام بيداغوجية موائمة ، الجمهور المناسب القادر على ان يُعجب به — الامر الذي قد يعفيه من ان يطرق باب الممولين .

وعلى الرغم من ذلك فان ثمة شيئاً كثيراً مما يقال في الدفاع عن الفن التجاري . انه ، بالمعنى الدقيق ، هو الفن المجدي ، الفن الذي أحكمته استجابة اهتمام الجمهور المشجعة ، والجمهور هو نفسه قرينة النفع الانساني الذي يجلبه الاثر الفني . وقد لا يتحلى الجمهور بفكر يماثل فكر (فولتير) ، ولكن ليس من العسير جداً عليه ان يتحلى بروح اكثر مما يتحلى بها النقد الاثيري أو العقائدي . ان الجمهور ناظم بدونه يصبح الفنان — أو نصير الثقافة المتحرر — إما طاغية اذا شاء فرض ذوقه باستخدام السلطات المتآمرة ، أو منتجاً تافهاً ينتج «مادة ثقافية تركيبية» ، حواراً باطنياً ورموزاً انفصامية تسوقه لغواية طهيها بمزجها بالكحول أو بمثيرات الهلوسة .

لقد ولدت جل الآثار الفنية الكبرى من الفن التجاري . كان (هومير) Homèreوالشعراء المغنون الاغريق يعيشون من قراءة آثارهم على الجمهور ، ولذا فانهم كانوا يهتدون بارتكاسات السامعين . وكذلك مؤلفو اغاني الحركة وزجالوا الشمال . وكان رسامو عصر (الانبعاث) في (فلورنسة) وفي (البندقية) والفنانون في (فرنسة) الذين كانوا يعملون للبلاط وللمدينة ، وهم يسعون لنوال الاعجاب ، وكان الموسيقاريون غير الكنسيين ، وبخاصة الموسيقاريون الدينيون الذين كانوا يلتقون بجمهورهم كل يوم احد ، وحتى

كتّاب الروايات المتسلسلة في القرن التاسع عشر ، (دوما) Dumas و (بلزاك) Balzac و (هوغو) ، ان هؤلاء جميعاً كانوا ينتجون فناً تجارياً ، أي فناً يحظى بجزائه على الفور . لقد كان (جول فرن) Jules Verne و (لابيش) Labiche ، وقد ازدراهما المثقفون ، ويعود المثقفون اليوم الى اكتشافهما مجدداً ، وبعد لأي ، كانا ينتجان فناً تجارياً . ان مطلب طباعة العـــدد الضخم من النسخ قد لا يكون مطلباً مثالياً رفيعاً ينشده الروائي ، ولكن هذا « المثل الاعلى » يحضه على الاقل على ان ينتج اثراً مقروءاً .

اجل ، هناك جمهور وجمهور . وان للفن التجاري الذي يرضي ارستقراطية اجتماعية حظاً في ان يكون أرفع من الفن التجاري الذي يرضي جمهوراً شعبياً . ان له مجرد الحظ في ذلك ، لأن الارستقراطية قد تتطلب آثاراً مزيفة بأكثر من تطلبها آثاراً مرهفة ، والشعب قد يتذوق الأفضل . كان الفن التجاري يستهدف في القرون الخالية جمهوراً متمايزاً له ثقافته ، وهو يتطلب ما يتطلب بحسبها . ولو عمد الفنانون بدورهم الى تربيـــة الجمهور ، فان ذلك يتم بدون ان يعرف الجمهور هذا القصد وبدون ان يريده ، لزيادة متعته وبدون أن يشعر بأن الثقافة الاضافية كانت واجباً عليه.

ان (الثقافة — الواجب) اختراع حديث ، ومتمم لا غنى عنه للثقافة التخطيطية . فال « مبتكر » يحمل على بلع آثاره بارغام الجمهور على ان يسد أنفه اذا لم يُرض الاثر ذوقه (لان المبتكر يزدري لف اثره بالعسل ، كما كان الناس في الماضي يقدمون زيت السمك الى الطفل الحرف) . وهو يكتفي بأن يؤكد للجمهور بأن « الايمان سيأتي » ، وان العلاج . ريثما يحين الوقت ، علاج نافع جداً عليه ان يحتمله اذا شاء « أن يكون مثقفاً » بحسب الواجب الثوري الصارم .

ليس من اليسير أن نفهم لم يتصف (كرونوس الخامس) Cronos v او (برج النور) Tour Lumière المقترح لتجميل (باريز) بأنه « سبرنتيكي » كما ينعته مخترعه . وعلى العكس ، يمكننا ان نفهم بيسر كبير أن الفن التجاري هو المتسم اتساماً اساسياً حقيقياً بأنه « سبرنتيكي » : ان الفنان المنتج يخضع لرقابة الجمهور الذي يهدي خطاه بحسب النتائج التي يحدثها لدى هذا الجمهور . الجمهور يقول له : « انك تضل ، لانك تبعث سأمي » أو : « لم أعد أفهم » أو ايضاً ، كما يقول مشاهد « المتحذلقات »(١) : « تشجع ! هذه هي المهزلة الحقيقية » .

وكما يمضي مخططو الاقتصاد في الحديث عن السبرنتيك وعن علم الإعلام وهم يهدمون السبرنتيك الحقيقية الاقتصادية التي هي جزاء السوق ، فان المخططين الثقافيين ، بسبرينتيكيتهم الزائفة ، يتعجلون هدم السبرنتيك الثقافية الحقيقية ، وهي اتخاذ الجمهور ناظماً . انهم لا يكفون عن المطالبة بالحوار ، ولكن في الحوار مع الجمهور ، لا يسمح للجمهور أن يتكلم إلا صدىً .

يذهب (هنري اوفيفر) ، وهو في هذا ماركسي تقليدي ، الى ان القيمة الجمالية للاشياء ترتبط « بقيمة الاستعمال » وبالعلاقة المباشرة بين الصانع اليدوي وبين الزبون ، في حين أن « قيمة المبادلة » لشيء — سلعة تتعرض كثيراً لاهمال جمال هذا الشيء . ولهذه النظرية ظاهر الحق بصورة سطحية . ولكن الزبون المباشر للصانع اليدوي قد يكون هو الامير ، أو النبيل ، أو الغني البرجوازي ، كما قد يكون رجل الشعب . وان جمال الشيء المطلوب يتبع ذوق الزبون كما يتبع ذوق الصانع ، وذوق الصانع ذاته يتبع

(١) Précieuses

جدارته الشخصية بأقل من ان يتبع استمرار التقاليد . ان قيمة المبادلة ، على عكس الحكم المبيّت الماركسي الذي يرى ان الصناعيين ينتجون أولاً ، بحسب منفعتهم ، ثم يعنون بتهيئة اذواق المستهلكين — ان قيمة المبادلة تخضع هي ايضاً للطلب وللاستعمال .

الا ان التعارض الحقيقي يقوم بين الانتاج التقليدي للصناعة اليدوية وبين الانتاج الصناعي ، ويقابله التعارض بين « الطلب المتريث » و « الطلب المتعجل » الذي يريد الحصول فوراً على السلعة مهما كلف الامر ، ولو كانت سلعة تافهة . ان الصناعة ، ولا سيما الصناعة ذات الاصل الخارجي ، وهي تبقى بعد زوال صناعة يدوية تقليدية ، انما تكون كارثة جمالية ولا سيما عند التقائها بمدّ العقائديات السياسية أو الدينية التي تهدم المؤسسات القديمة والعقائد المتكيفة ، وقد كانت هذه المؤسسات أرضاً خصبة تغذي الصناعة اليدوية التقليدية . ان اللدائن ، ومواعين البنزين ، والاسمنت ، والمنسوجات التركيبية ، تحل محل الاواني الفخارية والمنسوجات والابنية التقليدية وتؤلف مسوخاً لما يراد بوجه الدقة تقديمه الى المجتمعات الغنية باسم الفكر الفني الجديد .

ولحسن الطالع ، لا يمتنع على الاقتصاد الخاضع للسوق أن يحقق ضروباً من التقدم . فاذا كان « مبيع القبح سيئاً » اضطر المنتج الى بذل جهده . وقد فعل المنتجون ذلك في مجال السيارة ، والثوب الجاهز (وهذا بوجه الاجمال اجمل ما يخيط الخياطون العظام بانتاجهم المهووس ، وعلى الرغم من انهم يخدمون زبائنهم خدمة مباشرة اعظم) . ونحن ، على العكس ،

نخشى ألا يستطيع الفن والثقافة الصادران عن فرق رسمية – أو عن الفرق التي تتوّج نفسهـــا ، فعل (نابليون) في (الكنيســـة) – ألا يستطيعا الا اثارة دهشات مفزعة أو صيحات عجب سدى ، نخشـــى ألا يعودا الى الحس السليم والذوق السليم لفقدان الجمهور ، ما دام يحظر على الجمهور المكره على الرضوخ ان يبدي أي ارتكاس ، جمالي أو سياسي .

الفصل السادس

عقائديــات الحب
وعقدة الذنب الكليــة

العقائدي ، انسان الفكر ، هو بطبعه انسان يتحلى بارادة السيطرة ، ويختفي وراء قناع « البحث النظري » . يضاف اليه في الغالب تقريباً ، عامل نزعة جمالية ارستقراطية . ان المحب الحقيقي للنوع البشري — الانسان الذي يحب الناس — هو — بوجه الدقة ، في القطب المقابل . لنذكر (سان فنسان دي بول) St. Vincent de Paul و(الاب بيير) Abbé Pierre واخوات المحبة ، والاخوات اللواتي نذرن انفسهن للبائسين والمجذومـــين والمعتقلين . ولنذكر جميع انواع النسوة اللواتي يقفن حياتهن على والديهن الطاعنين في السن ، على اولادهن ، على ازواجهن . ان معنى الحياة بالنسبة لمحب النوع البشري ، أو في الاغلب بالنسبة لمحبات النوع البشري ، لان ثمة « مائة عاشقة » بازاء كل « عاشق » ، ان معنى الحياة لا يمثل في قيمة حياة المرء الخاصة ، بل في قيمة حياة الآخرين . ان محب النوع البشري يفكر في الآخرين كما يفكر في « اقربائه » ، كما يفكر في جماعة حية ينبغي فهمها بتسامح ، والاخلاص لها ، ولا ينظر اليهم نظرته الى أمر كلي ، أو الى جماعة مجردة . ان المحبة (اكابه)(١) تستبق قيمـــة الآخر : الطفل ، المتألم ، المتخلف ، المريض — أو تتذكر قيمته لو كان عجوزاً ، أو ضالاً ، أو مذنباً . المحبة ثقة . انها ايمان بالآخر ، انها ايمان اعمى

(١) Agapé

حيال عيوبهم ، ولكنه يصير ايضاً ، لانه ، وهو يشعر سلفاً بما لم يتحقق بعد ، ييسّر الخصال الاعمق التي لا يمكن ان تزدهر بدونه(١) .

الحب يرجو معجزات حكايات عيد الميلاد ، ولا يرجو معجزات تقنية . انه غير موضوعي ، غير اقتصادي . وان ارادة الحقيقة تمّحي لديه ، لا لصالحه ، بل لصالح الثقة التي يمنحها الآخرين ، حتى ضد بداهة الوقائع . ان « المصارحة بالحقيقة » ضد الاشخاص تبدو في نظر الحب فعلاً عدوانياً . ويبدو طلب الحقيقة بدافع الفضول الفكري صلفاً محضاً .

ان بيداغوجيته متواضعة خادمة ، وليست مسيطرة ولا تستهدف ضم الانصار . انه يغضب للكرامة بازاء الآلام وضروب التحديد المفروضة على قيمة الآخر يفرضها وسط غير موائم يشوّه الآخر ويضغط قيمته الممكنة . ولكن الحب لا يعمل ابداً عمل ديماغوجي يرمي الى استخدام هذا الضغط بوصفه قوة محركة تخدم اغراضه الخاصة . الحب لا يكره اللص كرهاً موقوتاً إلا لحماية الضحية . وان كل تذمر من الآخرين (وحتى من القدر ، والضرورة ، والله) ، بل كل تذمر « لا يتجه الى مصدر معيّن » ، يبدو في نظر الحب بمثابة لوم شخصي له لانه يشعر بمسؤوليته وبأنه يقترف بؤس الآخرين .

ليس للحب قانون ، انه فوق القوانين ، عدو القوانين والنظام . وان معياره الوحيد هو الوفاء للآخرين . انه فوضوي ، بمعنى انه يمضي نحو الاكثر الحافاً ، بدون ان يتساءل هل هو يعيد خلق اكواخ ضواحي المدن لايواء المتشردين ، كما عابوا ذلك على (الاب بيير) . لقد كان (كولبر) يأخذ على القديس (فنسان دى بول) انه يثير الفوضى أكثر ما يثير . ونحن نعلم

(١) انظر ا . سبرانج : اشكال الحياة **E. Spranges: Lebensformen**

ان فوضى تبلغ احياناً درجة الفضيحة كانت تسود في (لامبارنه) Lambaréné من حول (ا . شويتزر) A. Schweitzer .

ان نظاماً قضائياً يستند الى قواعد مكتوبة عامة شيء يمقته الحب لان الحب لاشخصي ، ولا يتقهقر .

انه لا يؤمن بالمساواة . انه يؤمن بمساواة الارواح فيما يجاوز ضروب المساواة النظرية وهو يرتاح ارتياحاً أعظم ، حتى ، الى العبودية الابوية القائمة على العطف بأكثر من ارتياحه الى مساواة « جذرية » . انه لا يولع بعدالة رجولة رومانية — في حين ان (برودون) ، وهو يجلّ العدالة ، كان يقول : « لقد بدا لي الحب مضحكاً على الدوام » . الحب ينفر من العقوبة. وهو يحسب ان من الممكن دوماً تقويم الاعوجاج بطريق العفو ، واسترجاع الطبيعة الصالحة ، الطبيعة الحقيقية .

الحب ليس اقتصاداً ، ولا عالم اقتصاد . وعندما يسود الحب يمّحي التملك . ان الجماعات العائلية تكره اقامة حصص رياضية. وان الجاذبية الكاذبة لسيادة الحب وسيادة الشيوعية السياسية مزاج اسود . وقد استمر « وزير الحب » في رواية (اورفل) Orvell ، على اطلاق كلمة «رفاق» على اولئك الذين أمر باعدامهم رمياً بالرصاص .

هناك مزيج صحيح من الحب والاقتصاد ، وايضاً من الحب والسياسة ، ولكن ذلك ليس بالشيوعية ، بل انه المذهب النفعي لمحبة النوع البشري ، مذهب « اكبر قدر من السعادة لاكبر عدد من الناس » ، لدى (فرنكلين) Franclin و (بنتام) Bentham و (الاب سان — بيير Abbé de Saint-Pierre الذي كان يريد ان تكون فعاله كلها فعال بر ، وكان يعظ مبشراً بجميع انواع الاصلاح النافعة ، من

منع المبارزة الى مشروع السلام الدائم ، وكان يحتج على « الفنون التي لا تعود بنفع في اسعاد البشر » ولكن الابداعيين وذوي الحساسية المفرطة – من طراز (ديكنز) Dickens – اسرعوا بالطبع الى الهزء من المذهب النفعي واضفاء حلة القبح على انصاره الأوفياء .

وبكلمة واحدة ، إن الحب والعقائدية لا يمتزجان إلا امتزاج الزيت والخـــل .

بيد ان العقائديين السياسيين يجدون من الممكن استخدام مشاعر محبة الانسانية ينبوعاً من ينابيع الطاقة التي يستطيعون أن يرفدوا بها آلاتهم الحربية . انهم يرتدون مسوح محبي النوع البشري عندما يجدون ان الاسلوب العلمي لا يناسبهم آخر الامر – ذلك ان اسلوب المقاضاة يسرف في شفافيته ، وينم عن مشاعرهم الحاقدة . وعندما يقومون بحملة من اجل ان « ينقذوا من براثن الموت » متهمين سياسيين فانما يهدفون الى الحاق الاخفاق بالنظام بأكثر من تطلعهم الى انقاذ حياة هؤلاء المتهمين . ان الهدف هو حمل الحكومات على التراجع ، ووضعها في مأزق عدم قدرتها على اعتناق جانب الرحمة الا وكأنها ترضخ لضعفها – وهذا الذي قد يعرّض المتهمين لخطر اعظـــم .

ان المطالبة بالعدالة يحرك اعظم المشاعر اندفاعاً ، وفي وسع العقائديين أن يستخدموا مباشرة هذه المطالبة بأكثر من استخدامهم الحب . ومـــن النادر جداً ان يكون الشعور بالعدالة فضيلة . انه يتصل في اغلب الاحيان بغرائز الدفاع والعدوان(١) . انه شعور تمركز ذاتي . وان ما يُعتبر « شعوراً

---

(١) انظر (ا . لي) و (م – ل . واتيه) : دراسات علم النفس الغريزي .
(دار النشر الجامعي الفرنسي ١٩٤٦) .
A. Ley et M.L. Wauthier Etudes de psychologie instinctive —

عفوياً بالعدالة » ليس في الغالب سوى تبرير ذاتي حافل بجنون العظمة لدى المضطهَدين – المضطهِدين . المجرم المعتاد لا يتحدث إلا عن العدالة . وان عدالته عدالة ذاتية محضة . انه لا يفرّق العدالة عن الثأر . وكذا فـان ابشع الجرائم ، الفردية وبخاصة الاجتماعية ، قد ترتكب باسم العدالة ، في حين ان العادل الصحيح قد يبدو مشبوهاً في نظر « القضاة » لانـه يعارض الارتكاسات العفوية . ان « القاضي » يرى في كل مكان الشر والظلم لانه عاجز عن الفهم وعن التعاطف ، ولانه ينظر الى الآخرين نظرة آلية ويراهم غيلاناً باردة ، من جراء اضفائه آلياته الدفاعية الخاصة ، واضفائه مشاعره المكبوتة ، مشاعر الضعف المتصلب العدواني . ان « القاضي » يعتنق موقف موجه الاتهام بدون ان يلتفت البتة لفتة القهقرى الى ذاته .

اما الحب – التعاطف فان العقائدية السياسية تستخدمه استخداماً مباشراً قليلاً جداً . اجل ان في وسع العقائدية استخدامه ، ولكن ذلك يتطلب مداولة بارعة وتفريعات مرهفة تربطه بالنقاط التي تولد فيها محبا النوع البشري طاقات ثانوية ، طاقات ارتكاسية صادرة عن طاقتها الاساسية وهذه الطاقات الثانوية التي يمكن استخدامها هي :

أ – الغضب للكرامة – وهو غضب صادق لدى محبي النوع البشري الحقيقيين – غضب للكرامة يهب في وجه الجلادين وايضاً ضد كل مـا يعوق أو يشوّه أو يضغط – امكانات الآخرين ، ولا سيما الشباب والاطفال والفقراء والمستضعفين .

ب – الفكر البيداغوجي للحب – المحبة ، ولكن بعد تحويله عن مجرد الاخلاص الحيادي سياسياً وتوجيهه شطر الدعاوة .

جـ - تحدي «رجل - الحب» (قيصراً) و (مامونا) (١) Mammon، تحدي النظام القائم، السياسي او الاقتصادي، على انه «نظام بدون روح».

د - النفور من العقوبة الذي يمكن استخدامه في الحملات ضد الشرطة، ضد العدالة، ضد العقوبات القضائية، البيداغوجية، العائلية، ضد اعادة النظام، باعتبارها قمعاً، عنفاً، جريمة ضد العفوية، ضد الحرية، ضد التفتح.

ان الحب فوق - القوانين. وهو قدرة فوضى، يصحح مخالفاته بصورة عفوية لانه اكثر رضوخاً لخير الآخرين من الصرامة الشرعية. ولكنه مذيب حيد و «مثير للعطف» جيد اذا اقتصر الامر على عملية أولية. ان ذوي الروح الرهيف. العطوفين والدموع ترقرق في مآقيهم. يلحقون بركب المكيافيليين البارعين في درب الاحتجاج على ابسط العقوبات أو اكثر العقوبات تبريراً. والسلطة، حيال تحالف الدموع مع التهديد بالقبضات المرفوعة، تحجم عن كل دفاع، وتعمد الى ستر ديماغوجيتها، بدورها، وراء قناع العواطف «الانسانية». وينشأ عن غياب العقوبات، (بصورة آلية)، عقوبة قيام فوضى وبائية قوائم المشاريع السياسية.

ان من يضطرب حيال عقوبة شرعية تنزل جزاء على اساءة ثابتة ويعمد على الفور الى رفع العرائض للمطالبة بوقف الملاحقات: انه لا يجازف بشيء خاص به. ولكنه يسهم في تدهور المجتمع بعد لأي. انه يتمتع بجميع الحظوظ التي تجعل الفئات المضطربة تنظر اليه باعجاب فيكتسب سمعة صاحب القلب الكبير لدى الجمهور الجاهل. وان فعله يسمى

---

(١) اسم يطلق على القدر والحظ في الانجيل. (المترجم)

« كريماً » على المدى القريب ، وعلى حساب الصحة الاجتماعية على المدى البعيد . انه ، كجميع الانذال ، يحمل الذين يمسكون بزمام العقوبات من اجل الصالح العام ، يحملهم كلهم على ابداء « بطولة تعويضية » ، وهم يجازفون بمنصبهم أو بصيتهم . وان « الروح الرهيف » يضع نفسه فـوق المحسن النفعي ، في حين انه أدنى منه جداً .

ان « مرهفي الشعور » الذين يذرفون الدمع امام العقوبات العـادلة المبرّرة تبريراً جلياً ، لا صلة لهم بالذائدين ، البطوليين في الغالب ، عن الضحية البريئة من ضحايا الخطأ القضائي — ما دام الجبن هو الذي يجثم الى جانب من يغطي الخطأ المقترف . ولكن خلط الحالين يشكل قناعاً آخر تختفي وراءه مشاعر المنافقين .

عقدة الذنب الكلية

ان لاختراع « المسؤولية الكلية » : « اننا مذنبون جميعاً عن حرب فيتنام ، عن الجوع في العالم ، عن تخلف العالم الثالث ، عن كوارث باكستان ، الخ — ان له أفكاراً — خلفية واحدة — وهذا الاختراع لا يصيب « نجاحاً » لدى عامة الفانين الا لأن « المسؤولية » تنقل على الفور وتضفى في صورة « ذنب الآخرين » وفي صورة ذنب كبوش الفداء ، وهذا أمر ذائع كالزي : الامبريالية ، اتحاد الشركات الاحتكارية ، « ذوو النفوذ » ، « النظام » . وهذا الاختراع يستجيب لدى المخلصين لارتكاسهم العفوي الآتي : « ان كل تذمر يتهمني » . ولكن شعور عقدة الذنب الكلية الذي نلقنه الى الجمهور يشبه قول الوعاظ الدينيين : « لنعترف بأننا جميعنا خطاة » . انه يصلح تمهيداً وسماداً لاخصاب الارض ، حتى يستطيع العقائديون بذر الكلام الجيد بعدئذٍ . ان المذنب العلماني ، كالعاصي في الدين ، مدعو

على الفور الى تكرار عدد من صيغ التطهر . ثم يحرضونه على ثورة ندامة ، على شن حرب صليبية . ويحظى أوائل الخطاة التائبين بوعد بلذة ضرب الخطاة الذين ما زالوا ضالين كيما يفتحوا عيونهم ، وهي لذة يستحقونها بسائق في وجدانهم الرهيف .

ومن باب المفارقة الظاهرة أن تقوي حملة « عقدة الذنب الكلية » الحملة على جميع انواع العقوبة . فاذا نهب حانق مهتاج وحرق وقتل المزودين وجب بادىء ذي بدء دراسة عقده واخطاء تربيته في مجتمع « سيء التكوين » . اننا جميعنا خطاة ، ماعداه . اما ضحاياه ، فانهم اكثر منه اجراماً ، لانهم اكثر منه عمى أو نفاقاً . ولا يفترض في كل معتقل انه بريء وحسب ، بل انه ضحية (رجال الشرطة ، القضاة ، المجتمع) وانه ضحية يحق لها المطالبة بالتعويضات . ان ثمالة الوعظ الاخلاقي السياسي والحب الكلي تغطي كل شيء وتشل حركة السلطات القائمة التي يخدعها أن التهمت الطعم لسذاجتها ، أو التي تتظاهر بأنها التهمت الطعم لشدة ديماغوجيتها .

ان فيض الحساسية المرهفة ، وفيض حنان عيد الميلاد ، على طريقة (ديكنز) ، يسبقان بوجه عام اسوأ طغيان القسوة . بل ان ذلك قرينة من اصدق القرائن على قرب اندلاع نار فتن اهلية ساحقة ، لانه يكشف النقاب عن فقدان الشعور بالضرورات السياسية لدى الجمهور المطواع ، وانما يفيد العنيفون الحقيقيون من هذا الفقدان . عندما يحب الناس القتلة بأكثر من ضحاياهم ، فان من السوي ان يتضاعف عدد القتلة . وبينا تهدف سياسة حازمة الى تقليص حجم العنف التاريخي ، وتقلصه في الواقع ، فان « الزعم الوهمي القائل بحذف كل عنف ينتهي في الاغلب الى زيادة

حجم العنف زيادة قصوى »(١) . ومن الجائز ان نلاحظ ان دعاة السلام يسهمون في اشعال الحروب . ولكن من الثابت ان انصار النزعة الانسانية يسهمون في استعجال الحروب الاهلية . ان حكومة « الحمقى » بالمعنى الذي قصد اليه (دستويفسكي) Dostoïevski — حكومة المستجيبين لاستعطاف المصروعين — تظهر قبيل حكومة الجلاّدين .

اننا نجد في مؤلفات القرن الثامن عشر كلها تقريباً امتداح الحساسية والارواح الرهيفة . وقد استمر هذا الزي من عهد شباب (فولتير) حتى اقسى ايام (الثورة) . وهذا المدح يفترض ان يكون هدف المجتمع « سعادة الناس » ، بمعنى اكثر ابهاماً من معنى (الاب سان — بيير) والنفعيين . يقول (كورنلد) : «انها فكرة جوفاء، أو فكرة زائفة، يتصرف بها مغالطون لخداع ذوي القلوب الشريفة » (٢) .

●

تعلن «جمعية محبي النوع البشري » Société des Philanthropes (سنة ١٧٧٦) في قانونها : «انها رابطة ينذر فيها رجال كرماء ومرهفو الشعور أنفسهم باخلاص لانارة سبيل البشر وتخفيف آلامهم ... وهذه الرابطة تجنح لتأليف أمة من الفلاسفة العمليين الذين يتبادلون معارفهم ويدنونها من صيحة البشرية ويسخرونها لخدمة السعادة العامة ... انها تعمل على اقتلاع الافكار المبيّتة التي تعارض الحقيقة ... وان لمحب النوع البشري متعاً مرهفة من جراء احسانه ... دمعة فرح تفيض من عينه . وان روحه

---

(١) فيلفريدو باريتو : انظر تعليقات (ريمون آرون) : مراحل الفكر الاجتماعي — ص ٤٧٥ . Vilfredo Pareto

(٢) اعتبارات ... (٢ ص ٥١) .

تكبر وتترعرع ... وهو يعنى بتخفيف صرخة الالم المقدسة ... انه يعمل من اجل الكمال الاخلاقي والسياسي والاقتصادي للانسان ... واذ يعمد حسب النوع البشري الى ان يقصر على الاشخاص المثقفين هذا النظام القائم على المساواة . والمساواة بطبعها ملك البشر كافة ، فان هذا الحب للنوع البشري يعتز بأنه يحمل على تحقيق ذلك بنجاح اعظم ... ومن ناحية اخرى ، يحتاج الادباء اكثر من سواهم ، الى أن يلتقوا في جمعية عادلة وصميمية . ولولا ذلك تجدهم ، اكثر من سواهم ، يستسلمون لنار الحسد وحنق الهجاء » (١) .

أما الفاظ محبي النوع البشري اليوم فانها ألفاظ مغايرة جداً . اللهجة عنيفة بدل أن تكون لهجة ملاينة . ان (ماركس) و (يسوع) يتعاونان . ولا سيما وان المعنيين لن يعترفوا بأنهم لا ينشدون إلاّ جمع « الاشخاص المتعلمين والادباء داخل جمعية عذبة وصميمية » . ومن جهة اخرى . كان محبو النوع البشري السابقون يمزجون بآرائهم المرضية مفاهيم نفعية سليمة . ولكننا بالنسبة للامر الجوهري ما زلنا في مرحلة عام ١٧٧٦ .

●

ان هذا النوع من العاطفة ، الصادقة أو غير الصادقة ، لم يحقق البتة كثيراً من التقدم في مجال محبة النوع البشري الجمعية والناشطة ، في مجال التنظيم المجدي للنضال ضد البؤس ، والجوع ، والمرض ، والتخلف . ان الحب علاج قوي لمصائب الحياة في الاسرة ، وفي المجتمعات **الصغيرة**.

---

(١) الطبعة الجديدة التي قام بها (نادي الروتاري في نانسي) سنة ١٩٣٢ لا : النظم العامة لجمعية محبي النوع البشري .

Statuts généraux de la société des philanthropes

وقد تبلغ قوته درجة تجعله يحوّر ضروب الشقاء كلها ويحيل الجحيم فردوساً . ولكن حين ننقل الحب الى حب كلي ، ننقله من حب القريب الى حب البعيد ، يفقد قيمته ويصبح عاجزاً عن تحقيق أي شيء .

ان قولنا هذا قد يبدو مفارقة ــ وانى لنا ان نزعم ، بالرغم من ذلك ، العكس ؟ ــ ولكن الاقتصاد الصناعي ، والاقتصاد الرأسمالي ــ ــ ونعني الرأسمالية في شكلها الفج الاقل اتصافاً بالصفة الاجتماعية ــ والتنظيم السياسي ــ ونعني التنظيم ذا السلطة الاعظم ــ هما اللذان حققا الشيء الجوهري كله في حالات تقدم محبة النوع البشري العامة الناجعة . وقد اشار الى ذلك (شومبتر) Schumpeter على الرغم من عدم ايمانه بمستقبل الاقتصاد الرأسمالي : ان المشفى الحديث ، وملجأ العجزة ، ودار الايتام ، وملجأ المكفوفين الشباب أو ملجأ الاطفال المعوقين ، كل ذلك ليس انتاج الاقتصاد الصناعي بأقل من انتاج السيارات ، والطرق المرصوفة بالزفت ، والطائرات ، والثلاجات . ولا يرجع ذلك الى ان النظام الصناعي يقدم الوسائل المادية وحسب ، بل الى أن « المذهب العقلي الرأسمالي قد قدّم عادات فكرية جعلت من الممكن تنمية الطرائق المطبقة في هذه المشافي (١) . ونحن نجد خلف انتصار الطب وحفظ الصحة الاجتماعية الطرائق الاقتصادية والعقلية التجارية . وهذه العقلية ، بنظرتها الى العالم نظرة ذرائعية وخارجة عن النطاق الديني ، هي التي انجبت النفعية ذات المنزع الانساني ، انجبت حس النجوع ، الارادة الاجتماعية ، بصرف النظر عن خشية الله وعن عاطفة الحنان المحض ، ارادة الاضطلاع بالمهام الاجتماعية . ان التنظيم

(١) شومبتر : الرأسمالية والاشتراكية والديمقراطية . (بايو ص ٢٢١) .
Schumpeter: Capitalisme, socialisme, démocratie—(Payot)

القوي السياسي والاقتصادي ، وليس الحب ، هو الذي قد يخشى امراض الدرن والزهري والسرطان وشلل الاطفال ؛ ومن الامور ذات الدلالـــة ان جماعات « الحب » الدينية او العقائدية ، عندما يوقعها ازدراء النظـــام الاجتماعي في حال تشبه التشرد ، انما هي التي ترجع بسرعة الاسواء التي اختفت في المجتمع الكبير » حيث تسود الاثرة والمادية » .

ان دور الحب في المجتمع ليس عدماً . ولكنه دور سطحي (وينبغي ان يظل سطحياً) . فحب الناس لا يفيد إلا اذا كان سطحياً . ان العفو المتفكه عن الهفوات أو عن المخالفات الصغيرة التي يجترحها الآخرون ، وطلب الصفح اللازم لذلك عن هفوات المرء ذاته ، والحشمة ، والتهذيب ، وألفاظ الشكر التي تلعب بصورة خاصة دور إعلام المحسن بأن بادرته قد تمّ ادراكها على الاقل ، وانها لم تقع في فراغ ، فوق قاع صلب من اللامبالاة ، ذاكم هو كل ما يمكن ان نطلبه من « حب الناس » ، وكل ما يمكن ان يقدمه هذا الحب . وما أن يود الحب ان يكون عميقاً ، اساسياً ، جوهرياً ، فان أول نتيجة من نتائج التعمق هي أنه يحمل على نسيان ظاهر مجرد التهذيب والصفح العذب . ان المجاملة ، والاهتمام الاولي بعدم ازعاج الآخرين ، والانتباه الى وجهات النظر المتنوعة ، ان جميع احوال السلوك السطحية هذه توهم عندئذ بأنها نفاق . وان شدة محبة الآخرين تتيح للمرء ان يطلق لنفسه العنان بأن يكون حيالهم سمجاً ، قليل الادب ، شرساً ، واخيراً ان يكون قاسياً كما يشاء .

ان الانسانية « المحبوبة » ، بالمعنى الصحيح ، الانسانية « التي يمكن ان نحبها حقاً » ، تتألف من الاموات اكثر من الاحياء . اننا نحب (باخ) Bach عندما نستمع اليه ، و (بروست) Proust عندما نقرأه . ولكنهما

قد يكونان مزعجين لجيرانهم ، الاول بسبب آلة « بيانه » (١) القديم . والآخر بسبب تدخينه . ان الانسانية تتألف من الغائبين اكثر من الحاضرين ، تتألف من وظائف مغفلة بأكثر من موظفين حاضرين . اننا لا نطلب من مستخدم في دائرة ان يعبدك حباً ، بل أن يكون مهذباً معك وحسب — وهذا سبب أن تكون مهذباً معه ، لا أن تعبده . وحتى في القرية ذات العادات الاخلاقية العريقة في القدم ، نجد أن الحياة المشتركة محدودة جداً . فالاعياد والاجتماعات والغناء ، كل ذلك حوادث نادرة لا تلبث أن تصبح ثقيلة الوطأة لا تطاق لو كانت مستمرة . ان الحياة اليومية تتركز حول الحياة العائلية الصميمية ، واذا حيّا امرؤ جاره بلذة فانه لا يتمنى أن يقيم عنده . ان جملة الاقوال الذائعة في الحياة الاجتماعية ، ويبدو انها قد بدأت في اوساط « العمل الكاثوليكي » ، ولكنها انتقلت الى امكنة اخرى ، وارتدت جميع الالوان ، وتحلت بالاصباغ الصارخة ، ان هذه الأقوال كلها قد تغدو كمال الاجوف ، واسوأ حيل التمويه .

---

(١) Clavecin

الفصل السابع

العقائديات باعتبارها اوبئة

العقائدية نظرية مزوّرة ، مبسّطة ، غير متحققة ، منظومة تأويل يتكىء اصحابها عليها بصورة اعتقادية كيما يطلقوا احكامهم على المجتمع وعلى الحياة الانسانية . انها تستجيب لشهوة الفهم — ولكنه فهم يتبع شهوة الاعتقاد . انها منظومة ادراك . وهي تشبه اسطورة أو عقيدة دينية . ولكن مع فارق مهم يتمثل في انها تنتشر من راشد الى راشد ، لا من جيل الى جيل بطريق الانتقال عبر الاسرة الى الاطفال الصغار . وان المرء ليعيش بحسب العقائد الدينية التي تؤلف جزءاً من الهيكلة النفسية المميزة لقوم من الاقوام . ولكن العقائدي يفكر في اعماله ويرتجلها بحسب العقائدية الذائعة . ثم ان العقائدية تنزع في الغالب الصبغة الانسانية عن الانسان ، وحتى عند ما ترتدي ثوب النزعة الانسانية ، وهي تبعث الانخلاع ، في حين انها تزعم طرده والقضاء عليه . ان للاسطورة الدينية شيئاً من العضوية ، وهي تكيف الانسان مع الطبيعة كما تكيفه في الوقت ذاته مع طبيعتها وكأنها كائن حي . اما العقائدية فان لها على الدوام سمة فكرية ، حتى عندما تقوم على الهوى . انها منظومة ذهنية ، وليست عضواً نفسياً أمسى لا شعورياً .

وبالرغم من ذلك ينبغي تمييز العقائدية عن « العقلية » . فالعقلية هي جملة الموضوعات المنهجية ، جملة العادات الذهنية التي تهيمن على انماط من الفكر لمصلحة عصر ، وفي ثقافة معطاة . أما العقائدية فانها تنطوي على تصور أدق : ان « عقلية » عصر من العصور يمكن ان تتجلى في عقائديات شتى ، بل ومتعارضة .

العقائدية تقع على درب الطوبائية ، وهذه ليست في الاغلب سوى توضيح عقائدية ذائعة ، أو انها انتقاد حافل بالصور ، باسم عقائدية اخرى ، لعقائدية ذائعة(١) .

العقائدية سلاح يطرح نفسه في ثوب نظرية . وكلما حسن تحليهـا بثوب نظرية صحيحة كانت سلاحاً أمضى . وعلى هذا يميل الباحثون الى اطلاق اسم « عقائدية » على فكرة الخصم — ويذهب (ريمون آرون) الى ان ذلك يصلح تعريفاً جيداً للعقائدية . الماركسية فلسفة ، بل انها علم ، في نظر اتباعها ، وهي في نظر خصومها عقائدية . وقد اقترح (سارتر) بصراحة اطلاق اسم « عقائدية » على الفلسفة بالمعنى التقليدي ، بينما تغدو الماركسية هي « الفلسفة » . ومن البديهي ان هذا النوع من المناظرات لن يؤدي الى نهاية : « انني فيلسوف ، وانت عقائدي » ، لو لم يوجد العلم ، أي المعرفة المحضة بالوقائع ، والتي يمكن الحكم عليها آخر الامر في ضوء التحقيق (او « التزييف ») التجريبي .

ان العرقيين ، او الماركسيين ، أو علماء التحليل النفسي (وهـم بالمناسبة عقائديون) يعتنقون تعريفاً مشوّهاً بجرأة عن العلم ، لا على اعتبار العلم طريقة تجريبية مشفوعة بالتحقيق ، بل على انه « قراءة » مسلحـة ترجـع « الجلي » الظاهر ، الى « الكامن » ، وتعتبر الكامن وحده هو الواقـع (٢) .

---

(١) ان الفوارق التي يقيمها (مانشايم) Mansheim بين العقائدية والطوبائية تبدو فوارق متكلفة تقريباً وبدون فائدة تذكر .

(٢) انظر فيما سبق ، الفصل السادس .

ان كل مصاب بجنون العظمة مصاب بوسواس « الاشارات » ، وكل « مضطهَد مضطهِد » هو ايضاً ممن يشغفون بفك الالغاز ، انه قارىء ذو هلوسات . ولكنه بالرغم من ذلك ليس عالماً — على الرغم من المشابهة النفسية الحقيقية بين موقف المختّرع ، واحياناً المختّرع العالم الذي لا يفكر إلاّ في بحثه ، وبين موقف المجنون بحب العظمة الذي لا يفكر إلا في حقه الجيد المهدد بالمؤامرات .

ان العقائدي ، مثل المريض بحب العظمة ، مريض بداء الاعتقاد . وان شعوره اشبه بمعدن خاضع لحقل مغناطيسي شديد يرغم مكوناته الذرية على الاتجاه تبعاً له . وان منطقه المزعوم ليبحث عن اتساقات تبسيطية ولا يعثر على « براهين » إلاّ على طريقة (عطيل) Othello بأن يضخـــم الاستثنائي ، ويحبط اثر الجلي . ان عقائدية « الاستغلال » عقائدية دالّة . وقد فضح طلاب أمريكيون من (كاليفورنيا) استغلال منتجي الكرمة في تلك المقاطعة العمال المكسيكيين ، بينما كان هؤلاء العمال يقومون احياناً بجولات مسرحية تصل الى (اوربة) ذاتها من اجل فضح مستغليهم ، وكانوا مضربين عن العمل منذ سنوات . وقد فضح الفاضحون استغلال الاستراليين لسكان البلاد الاصليين الذين يعيشون في صحرائهم ، واستغلال الكنديين للاسكيمو . وانتهى الطلاب الى الاقتناع بأن المصارف أو اتحادات الشركات الاحتكارية تستغلهم .

وكما تفضح العقائدية « القمع » أو « العنف » الذي يجترحه المجتمع المحافظ لانه يبذل جهوداً طفيفة لمقاومة مساعي هدمه ، فانها تفضح كذلك المجتمع « المجمّد » لانه لا يتفسخ بصورة سريعة سرعة كافية . وبما أن الخطوط الاجتماعية معقدة ومتشابكة دوماً ، فان من السهل على العقائديين

ن يقرأوا عبرها كل ما يشاؤون . وعند ما يبرزون الصورة التي يريدون يكف الموحي اليهم عن رؤية غيرها . لقد كان (لويس السادس عشر) « طاغية » ؛ وأصبحت القيود المفروضة على الامتيازات الباريزية تحدياً رمزياً للطاغية ؛ وكانت الملكة تريد نسف « المجلس »(١) بلغم(٢) . وقد انتهى قارئو الالغاز الكليون بحسب المنظومة الذائعة الى وضع انفسهم موضع السخرية . ولكن ثمة دوماً مبتدئين بالايمان يعيدون اكتشاف منظومة التأويل بصورة خطرة . لقد كان الكاثوليك الفرنسيون في نهاية القرن التاسع عشر يعزون مصائبهم كلها الى « فرنسة اليهودية » ، أو الى « المحافل » . ونحن نعرف منتهى العبث الذي امكن أن يرقى اليه (ليو تاكسيل) Léo Taxil في تاريخ (جبل طارق) على اعتبار هذا الجبل مركزاً ماسونياً سرياً ، أو في الجلسات الشيطانية التي امتدت الى « مجلس الوزراء » ذاته . واليوم يؤولون بمفردات الصراع الطبقي العلاقات العائلية ، وعلاقات المعلم بالتلاميذ ، وكذلك تعليم الاملاء .

ان الاحساس المباشر ، في الظاهرة النفسية ، ظاهرة « الثوابت الادراكية » ينحل الى « الصورة – الشيء » ، ويفترض انها ثابتة ، فوق « قاع » الاحساس ، والقاع هو الظروف ، مثل الابتعاد ، الانارة ، الخ . وعلى هذا النحو تبدو بقعة صفراء على انها مرج اخضر ، ولكنه مرج منار انارة شديدة . والبقعة الرمادية تصبح جصاً ابيض ، ولكن في الظلام .

---

(١) Assemblée

(٢) انظر (ارثور يونغ) : اسفار الى فرنسة – (بايو ص ١٥٦) . « ويعتبر ان الملاك جبريل قد هبط الى الارض ليقنعهم بأن ذلك لن يزعزع ايمانهم. وكذلك حال الثورات: وغد يكتب، ومائة ألف معتوه يرون ما يعلن» .
Arthur Young: Voyages en France—(Payot)

وكذلك ادراك جنون العظمة لدى العقائدي . فثمة « ثابت الاعتقاد » كما في حال الادراك . وهو يصبح امراً لا تنفذ اليه التجربة . والمصاب بجنون العظمة يطرح البديهية الآتية : « انا بريء ، ورائع » . ولكنه يعرف انه محتقَر » وبائس . ويخلص الى القول : « اذن ، فأنا ضحية مؤامرة » . ولما قرر (موّراس) ان الكاثوليكية ديانة النظام الاجتماعي ، بينما البروتستانتية ثورية بجوهرها ، فنحن نجد ان اكثر الاضطرابات في البلاد الكاثوليكية انما عزيت الى التأثير البروتستانتي الذي انتقل بطريق « ثلمة كوبيت »Coppet(١) . ولما قرر الماركسيون ان اقتصاد الدولة اعلى من المشروع الحر ، وُصم ازدهار البلاد الليبرالية ، في المانيــة ، واليابان ، والولايات المتحدة الامريكية ، بأنه ازدهار زائف ، غير سليم ، وهمي . ان العقائديين ينظرون الى ايحاءاتهم الذاتية على انها وعي ، والى قراءاتهم المهلوسة على انها فك الالغاز (أو انها « قراءة الرموز السرية ») . انهم يعتبرون ما يقومون به من « اجتثاث الصبغة السحرية » او « نزع الاقنعة » دليلاً على انهم هم لا يزيفون ولا اقنعة لهم . انهم لا يطبقون على انفسهم البتة « شبكتهم » الخاصة . ولا يخطر ببال الطلاب الشباب المولعين بالمادية التاريخية فكرة ان يؤولوا في ضوء هذا المذهب الصراع الطبقي الجديد القائم بين فئة المثقفين (٢) الذين يؤلفون هم جزءاً منها وبين المنتجين الاقتصاديين الذين ينفقون عليهم . انهم يفضلون تمويه الواقع ، بدعوى تحليله بالشبكة القديمة ، وهي شبكة صراع (العامل — رب العمل) ، الامر الذي يهبهم دوراً جميلاً — في السينما ، وفي المسرح — دور الذائدين عن المساكين وعن الصغار ضد اسيادهم الخبثاء .

(١) محلة في سويسرة قرب جنيف .
(٢) Intelligentsia

عقائديات واساطير

من الجلي أن كل مجتمع سوي تقريباً – أي المجتمع الذي يتكشف عن قدرته على الحياة سياسياً وثقافياً – يستند الى اساطير زائفة من الناحية النظرية كالعقائديات . ان الاسطورة هي ايضاً « تخيل عمل » ذو قيمة من الناحية الاجتماعية او الدينية ، لا النظرية . ان الايمان بـ (لويس السادس عشر) لانه كان ملكاً تقليدياً ايمان « زائف » مثل زيف الايمان بأن « المدعو لويس كابت » الطاغية الخطر يسارع الى القتل ليكفل سعادة الفرنسيين . بل ان الاساطير الاجتماعية تبدو اكثر زيفاً من العقائديات ، ولهذه العقائديات في الغالب مظهر عقلي ، وشبه – علمي . اننا نناقش عقائدية ؛ ونسخر بيسر عظيم من اسطورة ، من محرّم ، من اجلال تقليدي . وفي وسع ابسط تلميذ ثانوي ان يميط اللثام ، في جميع زوايا الحياة الاجتماعية ، عن أفكار مبيّتة لا يمكن تبريرها تبريراً منطقياً . ان الاسطورة ، أو العقيدة الدينية ، لا تصمدان امام عقائدية جديدة كل الجدة : المسيحية ضد الماركسية ، آنية فخار ضد آنية من حديد . ولا يمكن الدفاع عن العقيدة التقليدية ، سياسية أو دينية ، أمام محكمة العقل المحض ، إلا قليلاً . وان اللغة الفرنسية ملأى بضروب اللامنطق اذا قورنت بالاسبرانتو أو باللوغ (١) Algol . وان الاسطورة ، أو الغريزة ، أو المؤسسة التقليدية ، لا تربح إلا أمام محكمة التاريخ .

---

(١) مختصر كلمة لوغاريتم للاشارة الى لغة اللوغاريتم الاصطلاحية التي اخذت تستخدم في مجال الإعلام للدلالة على برمجة تركيبية اصطلح عليها بخاصة من اجل الحساب العددي . (المترجم)

ان « اجتثاث الصبغة السحرية » تظهر غالباً بمظهر رجوع الى الواقعية . ان التلميذ الثانوي الشاب يرضى بالتقائه بالكلبيين القدامى أو بالربيين الهرمين – الذين ، هم ، من جهة اخرى ، يحترسون كل الاحتراس من هدم الاساطير أو من الهزء من الجمهور والعروس الشابة المجنونة التي ترجع من الكنيسة بثوبها الابيض وعلى رأسها تاج البرتقال ، فتهمل ضيوفها وتشمّر عن ذراعيها وتغسل درجات سلّم منزلها لأنها وجدتها متسخة ، انها في قلب « الحقيقي » من زاوية حفظ الصحة المادية ، وان كانت تحدث في حفلة الزفاف تنافراً نابياً رهيباً . انها في قلب « الحقيقي » ، مثل (المحكمة الثورية) التي كانت تتحدث عن « الارملة كابت) . وفي جل حكايات المجانين ، المجنون هو الكائن المنطقي ، وهو الذي يفرغ شحنة اساطير مخاطبه .

ولكن اذا كانت العقائديات تذيب الاساطير ، وكان دور الفلسفة ، كما يرى (سارتر) ، هو دوماً دور « حل » المحرّمات السائدة ، فان الامر ليس امر صراع الحق ضد الباطل ، صراع (القديس جورج) St. Georges ضد «العنقاء» (١) . ان الأمر امر صراع بين زائفين ، بين عنقاوين ، احداهما ، الاسطورة ، تقليدية وتتكيف ببطء تكيف عضو حيوي يتقيد ، ان لم تقل بالحقيقي ، فعلى الاقل بالحاجات السياسية والاجتماعية ، في حين ان الاخرى ، العقائدية ، وهي زائفة مثلها ، عبارة عن نوع من اسطورة مرتجلة ، تركيب سطحي ، سلاح فتّاك وهدم يتكيف مع الثورة الوشيكة التي يتمناها الهدامون ، ولكنها ليست ذات قيمة بالنسبة

(١) Dragon

لمطالب المجتمع العميقة . ان العقائدية ، باعتبارها خطة اعادة بناء المجتمع ، هي مركب من ورق ألقي به في خضم الحوادث .

وينجم عن شدة اتصاف العقائدية بأنها شكل عقلي مزعوم من أشكال الاسطورة ان ما قد يكون عقائدية ثورية في غير المجتمعات الابتدائيــة يلبس حلة « اسطورة مرتجلة » ، مثل عقيدة المهدية الشعبيــة في العصر الوسيط الاوربي ، على اساس التنبوءات بالشؤون الاخروية ، وهذه العقيدة تقول برجعة (شارلمان) Charlemagne و (فردريك الثاني) Frédéric II و « امبراطور الايام الاخيرة » ، أو مثل النزعة المهديــة لدى الشعوب المتخلفة والمضطهدة ، وعلى اساس السفينة — المعبد ، والاضراب الديني العام الى ان يرجع الجدود .

ان العقائديات المعاصرة تعود الى التبسيط التاريخي الذي كان سائداً في القرن الثامن عشر ، وتهمل الحس التاريخي الذائع في القرن التاسع عشر ، وهو اكثر صحة وسلامة . انها تعود للارتباط بـ « الادب الفلسفي » — على أن من الواجب عدم خلطه بالفلسفة . وهي تريد ، كما يريد ذاك الادب ، أن تحمل الى العالم الافكار التي تثقلها ، أعني فكرة « اننا ندخل عصراً جديداً ، وأن لا بد ، بالدرجة الاولى ، من البدء بكنس الانقاض وخلع اسمال الماضي البالية »(١) . انها ، مثل الديانات الجديدة ، تنظر الى الازمنة التي سبقت ظهورها نظرتها الى أزمنة جهل وسيادة مبادىء سيئة . فهي تخلط فكرة التقدم بفكرة عرافة ، فكرة نظام جديد الجدة كلها . وتراها تقرر أن الطبيعة البشرية ستتغير ، أو ينبغي ان تتغير ، بجهد العقائديين

---

(١) كورنو : اعتبارات ... (٢ ص ٥٠) .

الذين يضطلعون برسالة استثنائية في وضع فريد لا مثيل له ، « وهذا أمر يصلح لتعبئة الرؤوس وتعجيل الازمة » .

اننا نعرف تعليقات (توكفيل) و (تين) Taine على دور الكتّاب والعقائديين في الثورة الفرنسية التي « حملت الى السياسة جميع عادات الادب الفلسفي » : نفس الوثوق بالنظرية ، نفس تذوق الاصيل، البارع ، الجديد في المؤسسات التي يعاد صنعها بحسب خطة وحيدة . ان هـذا « المشهد المروّع » (كما يقول توكفيل) ، يشبه شبهاً غريباً المشهد الذي نراه بأم أعيننا في الولايات المتحدة الامريكية وفي فرنسة ، مع تفاقم الخطر الناجم عن ان العقائديين المعاصرين يتصرفون بجماهير الجامعات كلها، وانهم يفوزون بدعم الكنائس والمحافظات حيث ان نجد في المكتبـات الخاصة الكتب الدينية الصفراء التي كان لا يزال في وسع (د . مورنه) D. Mornet أن يحصيها فيها .

العقائدية والمنظور الامامي

وعلى الرغم من ذلك فان العقائديات شبه ــ العقلية في عصرنا تطرح نفسها على انها جهد ضد المصلحة المباشرة والنظرة المشوشة ، الضيقة ، ومن اجل ان ترى بعيداً ، وان تفكر في الشيء الجوهري ، اللامرئي ، وراء تنوع المظاهر الخادع ، ومن اجل التفكير في المستقبل . انها تريد ، أو تزعم ، بهذا الاعتبار ، العناية بـ« الأمد البعيد » . وهي تشارك في الجهود المبذولة في قطاعات مختلفة ، القطاعات المستقلة عن العقائدية ، واحياناً القطاعات المضادة لأية عقائدية ، من أجل تعريف «الامور القـادمة الممكنة » ، بالمنظور الامامي ، بتقنية الفرضية ، بـ« الطراز التنبوي » ، ضد النظرة القصيرة والمصلحة القريبة لمديري الاعمال الاقتصاديين ، وضد

سياسي الاسبوع الصغير ، وكذلك ضد التقليديين العاجزين عن تخيـــل المستقبل الا باسقاط صور الماضي عليه . انها تقلق ، مع أتباع المنظور الامامي ، على مصير الطبيعة الملوثة . وهي ترسم مدن المستقبل بحسب نماذج النمو المتخيلة .

بيد أن مما يجانب العدل مزج الحركتين. ذلك أن (برتران دو جوفنيل Bertrand de Jouvenel و (بيير ماسه Pierre Massé و (ف . روستوف)[٢] V. Rostow و (ا . شيل) E. Schils و (لويس ممفورد Lewis Mumford و (هرمان كان Herman Kahn ليسوا عقائديين . ولكن العقائديين يحاولون دوماً الافادة من الاختلاط وان يلعبوا على هذين الجانبين وكذلك السياسيون المحترفون الديماغوجيون او العقائديون الذين يضيفـــون ، على هذا النحو ، وبدون جهد عقلي كبير ، الى شهرتهم السياسية شهرة انهم مفكــــرون .

ان العقائديات ، مع قناع المنظور الامامي أو بدونه ، قد تكون على صواب في وقفتها ضد النظرة القصيرة للمصلحة المباشرة في الاقتصاد أو في السياسة . ولكنها ، على العكس ، تكون هي ذات النظر القصير في رأي العقائد الاسطورية أو الدينية ، والثقافات شبه ـــ الغريزية ، والعـــادات الاخلاقية التقليدية والكلام . . هنا يعود « أمدها البعيد » « امداً قريباً » . وفي هذا المجال تكون العقائد اللاعقلية ، لا العقائد العلمية ، هي الـــتي تستجيب لشروط الوجود والبقاء الاجتماعي ، وهي أشبه بضوء الكواكب أو اللايزر الذي لا يضعفه ازدياد المسافة الارضية .

ان (فوراستيه (١) ، وهو هنا أحسن توفيقاً منه في نظريته المتناقضة التي يمكن مناقشتها ، وهي النظرية القائلة بالقطاع الثالث الاجتماعي ، انه يفصح عن آرائه بجلاء عظيم . ينبغي أن توجد في العالَم الاجتماعي ذي التطور المديد مجالات من المعرفة غير العلمية ، والسلوك غير العلمي . ذلك ان التجربة العلمية تعجز عن تناول المستقبل . وعلى الرغم من ذلك فان الانسان لا يستطيع الانتظار . ان عليه أن يعمل وان يعيش كما لو انه كان يعلم ويتنبأ . ان الجنين لا يعرف (بالفكرة وبالعقائدية) أن عليه ان يتنفس الهواء برئتين : وبالرغم من ذلك فانه يهيء التنفس الرئوي فيما يجاوز « المدى القريب » للتنفس المشيمي . ولكنه لا يقوم بذلك بنتيجة دراسة المنظور الامامي ، بل بدافع « التقاليد » ، و « الذاكرة الحيوية » ، لأن ملايين من أجنة الثدييات التي يتسلسل عنها ، قد فعلت ذلك على الدوام . ان الدين والاخلاق والتربية التقليدية هي ، كالغرائز البيولوجية ، جسور تربط المدى القريب ، الحاجة ، الرغبة المباشرة ، بالمدى البعيد ، بالبقاء الاجتماعي . فالدين لا يمكن التحقق منه إلا على المدى الطويل جداً . ولا يمكن الحكم بمقياس المدى القريب على ما بني على اساس المدى البعيد . ان الدين ، او « الاخلاق ذات المحرّمات » ، ينبغي أن يحكم عليه (او عليها) بحسب «المهمات الرهيبة والتي يتعذر التنبؤ بها مما ترتب عليه (أو عليها) مجابهته منذ وجود الدين (أو الاخلاق) ، وليس بحسب ما يبدو أنه يقابل المصالح المعاصرة أو الاهتمام بالحساسيات المعاصرة » . ان الدين ، أو الاخلاق اللاعقلية ، هما بآن واحد ، كالغريزة ، شيء أعمى

---

(١) افكار عظمى – (غونتيه ص ١٨٥ وما بعد) .

Idéos majeures (Gonthier)

في حركيته الحالية بالنسبة للافراد ، وشيء ذكي فيما يجاوز الافراد من حيث أهدافه الاجتماعية اللاواعية .

ان الايمان بالخطيئة ، بالدنس ، بالشرف ، بقيمة الحياة ، والتحلي بوساوس الخفر والامانة ، كل ذلك هو في وقت واحد لاعقلي وحركي في حدود الآن ، وهو موائم للبقاء الاجتماعي في المستقبل البعيد .

والعقائديات هي ايضاً حركية بالنسبة للحاضر . ولكن هل هي جيدة التكيف بالنسبة للبقاء الطويل ؟ بل انها اكثر حركيـــة من المحرّمات أو الاساطير التقليدية ، من اجل تطوير (أو تغيير) المجتمع . ولكن لديها حظوظاً كثيرة ، بسبب فقدان اصطفاء طبيعي طويل ، في أن تكون شبيهة بطفرة مَرضية أو مميتة ، بأكثر من شبهها بطفرة نافعة . ان العقائديات تزعم الحكم على المحرّمات والاساطير ، ولكن هذه المحرّمات والاساطير هي التي ستحكم عليها ، ان لم تحكم عليها الانقاض التي ستخلفهـــا ؟

وتجيب العقائديات بأنه لم يبق خيار امام المجتمعات المتقدمـــة . فالانقلابات ، وهي اوسع جداً من الطفرات البسيطة للتقنية العلمية ، قد هدمت العادات الاخلاقية والعقائد التقليدية هدماً أصبح يحول بين المجتمعات وبين استنقاذ أي شيء من انقاض لا متناسقة ، نتف لحم العـــادات الاخلاقية القديمة والاساطير العتيقة ، وهذه العادات والاساطير لن تعمل إلا بصورة مَرَضية ، فتحل ما كانت قد أبرمته »(١) . ولا يبقى اذن من أمل إلاّ في تحسين العقائدية « العلمية » تحسيناً متسارعاً . ولنعترف بأنها اليوم تقع في منتصف – الطريق بين الامد القريب جداً للاقتصاد الليبرالي أو للسياسة المتفائلة ، وبين الامد البعيد جداً للاديان والاخلاق . ولكن

(١) كورنو : اعتبارات ... (٢ ص ١٨٤) .

في وسعها ان تتعلم (بفضل العلماء بالمستقبل) ، كيف تخمد الامد البعيد جداً ، وبذلك تعالج عوز الديانات والاخلاق المعترف به . ان اذكى المحافظين : « كورنو » توكفيل ، ماكس فيبر اعترفوا هم انفسهم : قد يكون المرء في دائرة الحقيقي بالنسبة لفهم الماضي التاريخي ، «لا يكون المستقبل مؤيداً له »(١) . وقد تلا «المذهب الحيوي الاجتماعي » الذي يتيح اضفاء معنى على المقارنات البيولوجية مع الغريزة ، تلاه، والى الابد ربما، مذهب اجتماعي ميكانيكي أو مذهب اجتماعي عقلي حيث سيعيد فيه البيروقراطيون ، والتقنيون ، والمخططون ، والبيداغوجيون — الاجتماعيون، سيعيدون طوعاً بناء المجتمع ، وسيحلون محل الكهنة وعلماء الاخلاق والمربين التقليديين . وبكلمة واحدة ، قد تكون العقائدية حلاً أسوأ ، ولكن لم يبقَ أمامنا خيار إلا بين ايمان عقائدي ناقص ، ولكنه يقبل التكامل ، وبين دين أو اخلاق اسطورية ميتة أو محتضرة .

من الجائز ان نقول ان تلكم هي الفكرة الذائعة ذيوع الزي اليوم . وقد تكون هذه الفكرة مما يمكن قبوله لو استطاعت العقائديات أن تعثر على وسائل تمكّنها من الحفاظ بصورة كافية على حركية المدى القريب مع سعيها في الوقت ذاته الى النجاح على المدى البعيد . وهـذا الشرط اقرب الى التناقض . فمن الجائز ان يضحي بعض الناس بأنفسهم على مذبح فكرة بعيدة المنال ، بل ومن اجل فكرة محضة ، بدون دعم اسطوري يدعمها . ولكن عامة الفانين سيحتاجون دوماً ، إما الى انعاش ديماغوجي من اجل نضال حالي ، بحسب المنفعة أو الهوى الراهن ، ضد عدو مفترض يعترض سبيل هذه المنفعة أو ذاك الهوى ، وإما الى وسواس من نوع ما ، اذا لزم

---

(١) كورنو : اعتبارات ... (٢ ص ١٨٤) .

على المرء ان يعمل ضد منفعته أو رغبته الراهنة ، ابتغاء خير بعيد دائم . وهذا التناقض تحله الغريزة البيولوجية : ان الغريزة الجنسية هي ، في وقت واحد ، حركية ولذيذة لذة يومية كما هي نافعة من اجل بقاء النوع . وهذا التناقض تحله ايضاً اشباه الغرائز الاجتماعية الماثلة في المحرّمات والوساوس والاساطير الاخلاقية والدينية ، وهي ذاتها من نوع الهوى اليومي ذي المنفعة على المدى البعيد .

ولكننا لا نرى بصورة جيدة كيف تستطيع عقائدية حل التناقض : ان النضال ضد مستغلين افتراضيين أمر لذيذ ومثير للحماس : « لي الحنق ولك القلق » . اما الرضوخ للنظام الحتمي للمجتمع الجديد فانه ، على العكس ، شيء مؤلم وممل : وهو يحتاج الى توافر « دعم وسواسي » من اجل تحوير المهمة العضوية ، كما في زواج يمتنع فيه الطلاق . ان عقائدية النضال ، وهي عقائدية تهيج الشهوة ، مضطرة آنذاك الى الرجوع الى عادات مقدسة . وان « عبادة الشخصية » تشير الى رجوع العقائدية الى الاسطورة . ولكن عندئذ لم يكن من المجدي قتل (لويس السادس عشر) أو (القيصر)(١) ، باعتبارهما من (الآباء) الاسطوريين ، بغية الاستسلام المذعن لسلطة أول واغل من طراز (روبسبيير) Robespierre أو (ستالين) Staline ، وهو لا يلبث ان يتحول سريعاً الى (أب) اسطوري من النوع ذاته .

ان العقائديات ، في الواقع ، لا تتآزر إلاّ من اجل التظاهر بأن لها منظوراً أمامياً حقيقياً . فالعقائديات ليست خططاً ذات آماد بعيدة . انها لا تسعى لانتاج آثار اجتماعية ناجحة ، بالاعتراف بأخطائها وبتصحيح

---

(١) Tsar

هذه الاخطاء بيسر . انها انحيازات خاصة مترمتة ، وهي تتّهم خصومها بالتخريب وبالخيانة كيما تبرّر اخفاقها . انها « وحيدة البعد » على نحو اعظم من المجتمع الذي تتهمه وتشتغل بهدمه . انها قوة تمضي .

العقائديات باعتبارها أوبئة

علينا ألا ننسى أنه بازاء جنون العظمة لدى العقائديين الذين يعتقدون بوجود مؤامرات تخريبية ضدهم عندما يكونون في سدة الحكم ، أو يعتقدون بوجود حكومات مكيافيلية مشاكسة عندما يكونون في صف المعارضة ، يوجد جنون عظمة لدى المحافظين الذين يسرفون في الميل الى أن يــروا مؤامرات هدّامة واعية منظّمة حيثما يوجد ، بوجه خاص ، تدريب ، وعدوى ، وانقياد ، وبلاهة ، وجبن بازاء قادة عصيان هم انفسهم مدرّبون. ان العقائديين لا يرون ، لا يريدون ان يروا ، الآلية الوظيفية للمؤسسات الراهنة ، وهي تنزع الى تثبيت دعائمها بعد ان تنال منها الهزات . والمحافظون لا يرون آلية وباء قاهر : من ذلك تعلق الملكيين ، قبل الثورة الفرنسية وبعدها ، بفكرة أن الثورة لم يكن لها ان تندلع لولا ذهب (دوق اورليان) Duc d'Orléan ، واولا مؤامرات انصاره أو لولا المحافل الماسونية .

انما ينبغي البحث عن سبب توالد العقائدية توالداً سامّاً في طبيعتهــا ذاتها . ومن الجائز دراستها على طريقة شبه طبية بتحليل الفيروس ثم الارض المؤاتية . فالاوبئة العقائدية هي الطواعين السوداء لعصرنا . ونحن لم نعــد نخشى « الموتى السود » الذين كانوا يُنقصون بصورة دورية عدد سكان المدن الموبوءة الكثيفة السكان جداً في الغرب ، وكانت هذه الاوبئة تفد بوجه عام من الشرق الاقصى ، وهو اكثر تلوثاً ، مثــل طاعون سنــة ١٣٤٥ الذي حمله تجار (جنوة) ، وقد انتقلت اليهم العدوى من التتر ، ونجم

عنه خمس وعشرون مليوناً من الوفيات . وانما نخشى ، على العكس ، الاوبئة الاجتماعية . اننا نتأهب للاذعان ، ليس كما نقول بشفاهنا ، وبدون تصديق ، حيال تهديد خطر القنبلة الذرية — ولو كنا نخشى هذا الخطر حقاً لما اتيحت لفكرنا حرية تكفي لطرح عدد كبير من المشكلات المزعومة — ولكننا نتأهب للاذعان حيال التهديد بتفجر احوال فوضى ، وحروب اهلية ، ووباء جنون يثور ضد (يا جورج) و (ما جورج) جديدين : « الانخلاع » ، « مجتمع القمع » ، « التلوث » ، « اتحادات الشركات الاحتكارية » . ومهما قيل في الامر ، فان رجل الشارع ذا الحس السليم يخشى العقائديين المتزمتين بأكثر من خشيته الحكومات ، يخشى اللصوص بأكثر من خشيته الشرطة ، يخشى الانصار المحاربين اكثر من خشيته العسكريين .

الاوبئة النفسية والاوبئة العقائدية

واجب عدم خلط الاوبئة العقائدية بالاوبئة النفسية . فهذه الاخيرة ترتكز الى عدوى مواقف او أمزجة اكثر من ارتكازها الى عدوى أفكار . من ذلك ، وباء رقصة راهبات باخوس(١) في اليونان ؛ وفي الغرب الحملات الصليبية التي قام بها الصعاليك ، والجلاّدون ومطاردة الساحرات ، واحوال الفزع الاكبر ، والتدريبات الحربية ، واضطهاد اليهود ، والقتل الاعتباطي ، وعدوى العنف في جماهير المهتاجين الرياضيين أو الدينيين أو الوطنيين . فهذه الأوبئة (النفسية) تفترض في الغالب نقص غذاء نفسي موقوت ، وحاجة شبه فيزيولوجية لغذاء نفسي قوي : دم ، هدم ، اضطرابات ،

(١) Bacchantes

ثياب مستهجنة ، حيث يغدو كل واحد مشهداً ينظر اليه الآخرون ويسوق غيره الى ان يكون بدوره ممثلاً بحسب « السلوك – النمط » . ان الاوبئة النفسية تشبه الامراض السارية بأكثر مما تشبهها الاوبئة العقائدية . ان حدة المال المولّد للمرض (وهي « السلوك – النمط ») تنزع من تلقاء ذاتها الى التضاؤل بعد انقضاء المرحلة الحادة . ويتمتع اشخاص كثيرون بمناعة طبيعية بسائق مزاجهم ، أو انهم يكتسبون المناعة بعد اصابتهم بالعدوى . وثمة عتبة حرجة للكثافة الخطرة . وينشأ عن الازدياد المطرد في عدد الذين تمتنع اصابتهم بالعدوى ، بعد مرحلة معينة ، أن يأخذوا هم بتبريد المتحمسين . وقد لاحظ المراقبون أن لدى المصابين بالعدوى « مزاجاً مزدوجاً »(١) في الغالب ، ومثلاً مزاج عدواني ومزاج صداقة نحو الجماعة – الموضوع التي تلقى عليها الازهار قبل ذبحها ، أو التي تذبح أولاً ، ثم يبدو الترحم عليها بحماس .

أما الأوبئة العقائدية فانها تختلف اختلافاً كبيراً. انها أقل شبهاً بالاوبئة الجرثومية أو الفيروسية العادية حيث لا يهاجم الفيروس إلا الجسد دون النواة الخلوية . انها أشبه بما قد يكون عليه الوباء المولّد للسرطان ، اذ يحل الفيروس محل المادة التكوينية للمواد الخلوية ، ويغيّر طبيعتها ، ويرغمها على التكاثر باعتبارها خلية سرطانية . انها تنتشر باختناق « نظرية » تستولي على الفكر من حيث أنه مركز عقائد أساسية ، لا من حيث انه مركز مواقف موقوتة . وهي لا تفترض توافرها جماهير حقيقية بل ولا طبقات اجتماعية متصارعة ،

(١) ريشاردسن Richardson ، نقلا عن (رادبوبورت) : مناضلات ومناظرات وألعاب (دونود ١٩٦٧ الفصل الثالث) .

Rapoport: Combats, débats et jeux (— Dunod 1967

بل تكتفي بفئات اجتماعية مهيأة سلفاً ومتألمة من نقص غذاء روحي (لا نفسي) ، فئات تعوزها عقائد جازمة بقيم اجادت بناءها معمارية الاساطير الدينية أو التقليدية .

ولا يجري الانتشار بتقايد أمزجة ومواقف ، بل ، على نحو اعمق ، باقتناع منقول ، ومدعوة للدراسة ، ثم لتمثل الفكرة على اعتبارها إعلاماً منقذاً ينير السبيل ، وطريقة تحليل وتفكير .

وعلى هذا المنوال نجدها تستولي ، لا على أضعف الادمغة ، فعل الاوبئة النفسية ، بل في وقت واحد على أقوى الادمغة واكثرها استعداداً وتأهباً لقبول الإعلام ، واعظمها شرهاً للقيم المعمارية وللمذاهب المفككة للالغاز والمذاهب « البنّاءة » . لقد وصف (فلوبير) Flaubert في « بوفار وبوكوشه »(١) وصفاً مناسباً نمط المتأهب للعدوى العقائدية لدى من هو بآن واحد قوي وضعيف ، بأكثر منه ذكياً ، ولكنه بوجه خاص جاهز فاغر الفاه ، وهو جد مختلف عن المتأهب للعدوى النفسية ، وهو ضعيف وأبلـه .

والامر الذي يبعث على الضلال هو أن هذين النمطين من الاوبئة يمتزجان في الغالب . لقد ظهر انتشار العنف اليساري على اختلاف انواعه في الولايات المتحدة الامريكية وفي فرنسة وفي ايطالية أولاً في شكل وباء نفسي ، بصدد خلافات نظامية تافهة ، لدى « متشنجي » (بركلي) و (نانتر) ، وكانت: « الحركة » و « الاحتجاج » ينطويان في نظرهم على مواقف نفسية خالية من مضمون عقائدي محدّد . ثم زالت الاوبئة

(١) Bouvard et Pécuchet

النفسية تقريباً ، وخلّفت وراءها ازياء في اللباس ، واساليب سلوك ، وفرقاً ذهب كثير منها حتى الى نسيان « العقائديات » المصاحبة وذلك في جـــو الصوفية أو الجمالية — ومثلاً الهيبية ، على عكس عقائديـــات العنف اليساري — . ولكن الاوبئة العقائدية الماركسية أو الماركسية الجديـــدة أو الماوية ، ما تزال تنتشر بل وتتجسد في مؤسسات .

الشرط ذو التوالد الذاتي

تحتوي (الفكرة — الفيروس) في الاغلب على نوع من حكم بالتوالد الذاتي (كما في الفيروسات المولّدة للسرطان) ، نوع من طريقة التعميم الذاتي بـ« شذوذ » المنظومة التكوينية للخلية المريضة . والعقائدية الماركسية عقائدية نمطية : أ — انها تقدم طريقة عامة للمعرفة الاجتماعية: المصالح الاقتصادية باعتبارها بنية تحتية ، صراع الطبقات باعتباره حاضراً على الدوام وراء ما يموّهه . ب — ثم انها تضيف : « اذا لم تعتنق الماركسية ، فذلك لان شعوراً زائفاً قد أعشى ناظريك » . وانت إما « منافق » او « نذل » . وعلى هذا المنوال ذاته يعمل التحليل النفسي باعتباره عقائدية وبائية : — يكفي أن نتصفح المجلات الاسبوعية النسائية حتى نشاهد أن التحليـــل النفسي المبسّط هو بالنسبة للطبقة المثقفة النسائية كالماركسية بالنسبة للطبقة المثقفة المذكرة . أ — ان التحليل النفسي يقدم طريقة لمعرفة الحياة النفسية ؛ ب — وهو يضيف : « اذا رفضت حقيقة التحليل النفسي ، فذلك لانك خاضع لمحرّمات ، أو ان عقدك الخاصة تعشي ناظريك » . وقد حاولت الوجودية (بنجوع ضئيل) ان تقدم نفسها على انها شرط من هذا النوع : « اذا لم تعتنق نظرية الحرية المطلقة فذلك لانك « غير اصيل » ، وانك تخفي بذاتك عن ذاتك حريتك » . وتعلن العقائدية النيتشوية الزائفة ايضاً :

« اذا لم تقبل الاخلاق الارستقراطية للقسوة ، فذلك لانك من دم فقير منحط ؛ واذا رفضت ان تكون ارستقراطياً ومسيطراً فذلك لانك عبد بالولادة ».

وقد يتفق أيضاً أن أول من يقذف الفكرة يمتح من الفكرة ذاتها ما يؤيدها في نظره عندما تبدو الفكرة بأنها ما تزال موضع شك موقوت . مثال ذلك ، لقد شك (فرويد) سنة ١٨٩٧ (١) في حقيقة الآثار الجنسية المتبقية من سن الطفولة الاولى ، وكان هو نفسه قد أوحى بها الى مريضاته : « لقد كنت في أول الامر مرتبكاً » . ثم قال في نفسه اذا كانت ذكريات المريضات زائفة ، فان ذلك لا يمنع من أن تكون اكثر دلالة على عقدهن . ان المحقق العقائدي الذي يلجأ الى صنوف التعذيب يؤمن هو ذاته ايضاً بحقيقة ما يستخرج من ضحاياه .

ان الشرط ذا التوالد الذاتي يمنح الفكرة امكان الذيوع حتى في وسط معاد ما دامت الفكرة تستخدم العداوة برهاناً على صحتها . ان الفكر المعادي مطالب بأن يتساءل لدى تماسه بالفكرة – الفيروس ، مطالب بأن يشك في ذاته ، بأن «يهتدي» ، مثل خلية تكوينية مصابة . وان كلمتي « منافق » و « نذل » ليستا شتيمة وحسب ، وقد يثور المرء في وجههما : بل انهما « كلابتان » ، عضوا اقتناص . فالانسان الذي يلقى مثل هذه المعاملة مطالب بأن يتساءل ، وبأن يجد نفسه « نذلاً » ذا لم يهتد .

ان « حيلاً » مماثلة توجد ، وكانت توجد ، في العقائديات الدينية .

---

(١) و . ساركانت : فيزيولوجية الهدي الديني والسياسي (دار النشر الجامعي الفرنسي ١٩٦٧ ص ١٧٠) .

W. Sargant: Physiologie de la conversion religieuse et politique— (P.U.F. 1967).

مثال ذلك العقائدية المسيحية : أ ــ كانت تقدم طريقة عامة لمعرفة العالـَم . ب ــ وكانت تضيف : « اذا لم تؤمن تعرضت لخطر الدينونة ؛ لقد اعماك الشيطان » . وكانوا في الماضي يعذبون الشباب وهم يقولون لهم : « اذا فقدتم الايمان فذلك لان الشهوة أعمتكم » أو يقولون : « الشك ذاته خطيئة » . واليوم يرجحون ان يقولوا بمكر اعظم : « الشك ذاته دليـــل على أن في أعماقكم الايمان الحقيقي » .

ان جميع الافكار أفكار ذات قوام . انها تبقى في الثقافات بقـــاء أقوى في الغالب من بقاء المواد ، أو الاشكال ، أو العضويات الفردية أو الجمعية . ولكن العقائديات اخترعت درجة قوام جديدة ؛ انها بالنسبـــة للافكار العادية كالجزيئات قبل ــ الحيوية ، جزيئات التوالد الذاتي ، بالنسبة للجزيئات العادية .

لنتخيل جماعة مفتوحة من الناس يتناقشون في الافكار (في هايد بارك Hyde Park أو في شارع سان ميشيل Boulevard St.-Michel) . المناقشات تتغير ، ويغادر كثيرون جماعة المتناقشين ويفكرون في شيء آخر . المناقشة تستمر ، حول الافكار ذاتها ، والافكار « تغيّر رؤوس من يفكر فيها » . ولكن اذا كان الامر أمر فكرة ذات توالد ذاتي فـــان المهتدين من الجماعة يغادرونها وهم يحملون في رؤوسهم الفكرة ويعملون بدورهم على بذرها كما تبذر ملتهمات الجراثيم(١) .

وخارج العقائديات بالمعنى الصحيح تنتشر ازياء فكرية كثيرة على نحو مماثل ، بالارهاب الذاتي . لقد تجاهلوا الرسامين الانطباعيين ، ثم (سيزان)

---

(١) Bactérophages

و Cézanne (فان كوخ) Van Gogh . وفضّلوا (سوللي برودوم) Sully Prudhomme على (بودلير) Baudelaire . ولوحقت « ازهار الشر »(١) لانها لاخلاقية. واستنكر المشتركون في (الاوبرا) « تانهاوزر » (٢). ووجدوا موسيقى (بيزة) Bizet متنافرة . ولم يؤمن (تيير) Thiers بالسكك الحديدية . وعلى هذا فانت اذا لم تقدّر اليوم موسيقى (كزناكيس) (٣) Xenakis او رسم (ماتيو) Mathieu او مسرح الحركات(٤) ، او البيداغوجيا المحرّرة — فأنت « متجمد » ، وستصبح مضحكاً عما قريب — في نظر نفسك .

وبالرغم من ذلك ، وفضلاً عن ان الاستدلال التمثيلي لم يعتبر البتة ذا قيمة كبرى من الناحية المنطقية ، فلا يخطر بالبال ، ان المماثلة التاريخية ، في هذه الحال الخاصة ، قد تقود ترجيحاً الى نتائج معارضة . ذلك ان التجربة تظهر بوجه عام أن الحقبة المتألقة في ميدان الابتكار تعقبها فترة اطول من الانحطاط ، اذ تحل الطرائق محل الالهام ، ولا تبقى التحسينــات سوى مزاودات .

وفي هذه الاثناء يحدث «التخويف بالمماثلة»(٥) العجب العجاب .

---

(١) Fleurs du Mal

(٢) Tannhâuser

(٣) يانيس كزناكيس : موسيقار فرنسي يوناني الاصل ولد سنة ١٩٢٢ ونال الجنسية الفرنسية ١٩٦٥ عمل في الهندسة المعارية وساعد (لوكروبوزيه) ورأى ان الموسيقى تجتاز ازمة عقم فبدأ بوضع موسيقى تستند الى حساب الاحتمالات وتوصل الى اصوات طريفة اشبه بالضجيج واشتهر بقوة ابداعه وموهبته . (المترجم)

(٤) Théâtre de Gesticulation

(٥) Intimidation par analogie

ففقر (فان كوخ) يستمر في اغناء عدد لا يحصى من الرسامين غــير الموهوبين ، ومحاكمة « أزهار الشر » قضائياً تستمر في أن تكون حظاً مباغتاً لمستغلي الشبق ؛ وفقر مخبر (باستور) Pasteur منجم من ذهب لمخابر البحث اليوم (وحتّى بالنسبة لمن يشتغلون بانتشــار داء الكَلَب) . ان «التخويف التماثلي» بالنسبة للتقدميين اشبه بما كان (شامفور) Chamfort يقوله عن تهديد « الزكام المهمَل » للاطباء ، وتهديد المطهر للقسس ، انه (باكتول) (١) Pactole .

اجتثاث المرحلية العقائدية

ان اتسام العقائديات بسمة الوباء يفسر سبب كونها بصورة عامة جداً تضاد زمن الواقع وتعاكسه . ان « الافكار المأخوذة » لا تتكيف مــع الظروف . وان الناس لم يتحدثوا عن حب البشر وعن السعادة وعن الاحسان بأكثر من حديثهم عن ذلك قبيل ظهور (الارهاب) ومذابح الحروب الثورية والنابولونية . انهم لم يتحدثوا عن المجتمع المقبل المعقول بأكثر من حديثهم عنه سنة ١٨٤٨ ، وقبل بضعة سنوات من الرجوع الى البونابرتية . لقد كان الحماس الوطني قبل سنة ١٤ يندفع بتصميم نحو حرب (بلييونزية) جديدة نجم عنها تدمير اوربة وادماء فرنسة . ان فضح الرأسمالية بعد ما اصبحت « حاملة وزر » المجتمع ، وفضح الانتاج الكبير بينا سترغم زيادة السكان في وقت قريب العالم كله على منافسة اليابانيين الذين يعيشون

---

(١) نهر صغير في ليديا يطلق عليه القراء اسم «النهر الذي يجري ذهباً» لان الملك (ميداس) Midas حمل اليه خاصته حين استحم فيه وهي ان يصبح كل ما يلمسه ذهباً . (المترجم)

بمعدل مائة مليون نسمة في رقعتهم الضيقة ؛ فضح « المجتمع المجمّد » في حين ان الناس يعانون من التطرف في الاصلاح ؛ فضح القمع في حين بلغ تحرر المجتمع درجة فقدانه الطاقة ؛ فضح التفاوت ، بينا تتوحد العادات الاخلاقية ومستويات المعيشة ؛ فضح الحياة غير السليمة بعد أن اخذ العمر الوسطي بالازدياد ؛ فضح استغلال البلدان الغنية العالم الثالث في حين أن القضاء على الاستعمار قد انتهى عملياً ، وانهم يساعدون هذا العالم الثالث – ان هذا كله على المقاوب تماماً . ان هذا الانزلاق ، هذا الزمن المضاد الدائم بين الحوادث والعقائديات الذائعة يدل كل الدلالة على أن الافكار السائدة لم تصنع على القياس، على رؤية بارعة، بل انها انما نجمت عن « اصابة » وبائية . ان المرء يحصل على عقائديات عصر من العصور بطريق السمع أو القراءة أو محاكاة المصابين الاوائل ، لا عن طريق النظر الى الواقع . ثم ان هناك ايقاعاً خاصاً ، سرعة انتشار خاصة للعقائديات شبيهة بالسرعة الخاصة لانتشار العدوى المرضية . وهذه السرعة ، من جهة اخرى ، لا تتبع طبيعة الفيروس ، بل تتبع في كل عصر وسائل النقل . ففي الماضي كانت الكوليرا الآسيوية تنتقل بالسفن التي تصل الى مرسيليا . واليوم تسافر ، ويمكن أن تسافر ، بالطائرة . لقد كانت العقائديات تنتقل في الماضي بطريق الموعظة (مثل الحملات الصليبية) ثم بالمطبعة (مثل البروتستانتية) ثم بالصحف . واليوم تنتقل بصورة أسرع بالمواصلات اللاسلكية . وقد يقال بالرغم من ذلك ان الانتقال لا يجري بصورة آنية مثل الاذاعة . وانه لا بد من مرور وقت من أجل التمثل ، بالدعاوة المباشرة ، بحملة نشرات ، أو اعلانات ، أو أوراق الآلة الناسخة . وعلى هذا فقد استغرقت الاضطرابات الطلابية في (كاليفورنية) اكثر من عام لاجتياز الاطلسي والوصول الى

(نانتر) ، ثم الى (السوربون) والى جامعات المحافظات ، والى الثانويات.

واهم من ذلك تشكيل اوساط موائمة . وكما تفيد اوبئة الوافدة من الحشود الكبيرة في المخازن أو قطار المدينة ، فان الاوبئة العقائدية تفيد من تضخم النزعة الفكرية . وقد لا يتيسر تصورها من حيث شكلها الخاص وايقاعها الخاص بدون التجمعات الضخمة من المفكرين ، اساتذة وطلاباً ، وقد حملهم الاندفاع العام نحو التعليم .

والنتيجة الاخيرة هي حدوث انزلاق الواقع ــ العقائدية . لقد كانت الماركسية الاصلية تؤول سلفاً مع بعض التخلف الوضع الاقتصـــادي في انكلتره وفي فرنسة . ولئن اصابت مثل هذا النجاح الكبير اليوم ، فما ذلك البتة لانها تواجه مشكلات عصرنا حق المواجهة ــ انها تواجهها على نحو سيء جداً ــ بل لانها تلقى أوساطاً موائمة ، اكثر قبولاً لها من الوسط العمالي ، أوساطاً مؤلفة من اناس منفصلين عن الاعمال ، ومتعطشين لمذاهب تأويلية واوصفات « قراءة » . لقد ابتعد المركب على البحيرة منذ زمن طويل قبل أن تصل موجة صدمته لتحرك ، بتأخر كبير ، قصبات الشاطىء الصاخبات .

بل ان الانزلاقات تتقاطع في تداخلها غالباً : لقد سئم الطلاب الروس دروسهم الرسمية عن الجدل المادي وهم يحلمون بالطرائف المستوردة من الغرب ، بينما يغوص الطلاب والتلاميذ في الغرب بلذة في شروح (ماركس). وقد انتهت الثورة الطلابية الحادة ، مع مسيرات (الحرس الاحمر) منذ زمن طويل في (الصين) ، في حين انها لا تزال تجعل شعارات (ماوية) تقريباً تسوّد جدران الجامعات الفرنسية .

ان العمر الوسطي لضحايا وباء يختلف باختلاف طبيعة الفيروس .

فالعقائدية المسيحية – بشرطها ذي التوالد الذاتي : « اذا لم تؤمنوا حاقت بكم الادانة » – ظهرت بوجه عام على انها تصيب الشيوخ بأكثر من الراشدين والشباب . وفي القرن السابع عشر، كان المرء يهتدي – أو يزيد هديه – في حوالي الخمسين من العمر وكان يصرح انه بعد أن عمل من أجل الآخرين فقد حان الوقت اخيراً ليفكر في خلاصه . وفي هذه الاثناء كانت تتفجر نوبات صغيرة من الحمى الدينية : لقد كان (لويس الرابع عشر) يقصي خليلاته خلال بضعة ايام ويرسلهن الى (الصوم) . وكان (سان سيمون) St-Simon يذهب لزيارة صديقه (رانسه) Rancé في ابرشيته (لاتراب) La Trappe . ولكن الراشدين، حتى من الكنسيين « المتأثرين باليسوعية » ، والذين غدا الفيروس يعايشهم ، كانوا يحيون حياة سوية مصبوغة بقلق خفيف في الاعماق، وهو قلق نافع في الارجح . وانما تنفرد بعض رؤوس اكثر قوة ومنطقاً، وهي في الوقت ذاته أضعف من بعض وجوه الاعتبار، مثل (باسكال) والجانسينين، تنفرد بأنها كانت مصابة طوال حياتها . فعندما كانوا شباباً اعتزلوا العالم بفرارهم الى نوع من مشفى جذام روحي، (بور رويال) Port-Royal، وكان ذلك احتياطاً يطمئن البعض، ويهدد تهديداً ماكراً الآخرين الذين كانوا يشعرون بقرابة العقائدية الدينية من العقائدية السياسية . فقد كان التجرد الصوفي شكلاً آخر من اشكال الارتكاس على الفيروس ، وهو ارتكاس مرضي بذاته .

وعلى العكس، كان تأثير العقائدية الماركسية في الغرب أعظم على الشباب منه على الشيوخ ، لانها عقائدية سهلة تستجيب لارادتهم الفهم قبل الدراسة ، والثورة قبل التطور ، والتحليق قبل السير ، واطلاق الحكم قبل أن يطلق

عليهم . وأما الشكل الراشد أوالهرم فانه بالحري نوع من التحنيط ، من انتزاع الحيوية على نحو محافظ أشد المحافظة. ولكن ثمة حالات شفاء كثيرة تصحب التقدم في السن ، ولا يعترف بها على الدوام .

ان تأثير العنف اليساري ، باعتباره شكلاً من اشكال الماركسية أقوى على الاعمار الانضر وشبه الطفولية وعلى أوساط أكثر تزييفاً وتطفلاً وجمالية. أما الاشكال الهرمة من الماركسية فمن الجائز أن نفترض انها أشبه بالاشكال الهرمة من الفوضوية بأكثر من أن تشبه فكر أولي الثمان والاربعين سنة من العمر اوفكر الفئوية الاجتماعية . وأن الاصابة في سن الحداثة خطرة خطر شلل الاطفال أوالجنون المبكر .

وهذه الاصابة قد تنثر على ارصفة شوارع المدن أوفي أقبية قطار المدينة شباباً هرمين قبل الاوان . وربما عمدت الى نذرهم لفاعلية مزعومة في عالم لاواقعي ، عالم ذي رمزيات يمتنع تناقلها وهي رمزيات لايقل نماؤها عن رمزيات الانفصام . وتعوزنا المبعدة الزمنية لمعرفة المصير الممكن لعجوز من أنصار العنف اليساري بعد برئه ، أوعجوز بلغ الثامنة والستين من العمر. ونحن كذلك أقل معرفة بالانسان الذي سيبقى بعد وفاة الهيبي وهو في سن الشباب.

ان الامراض العقائدية كلها تخلف عقابيل . وفي وسعنا التعرف بيسر على حزبي ملكي قديم ، على « سيوني » (١) سـابق ، عـلى فاشي سابق ، على نازي سابق .

(١) اشارة الى الحركة الديمقراطية المسيحية المعروفة باسم Sillon وقد اسسها (مارك سانيه) Marc Sangnier في اواخر القرن التاسع عشر وقد حاولت التخلص من السلطة الكنسية ولكن الامر انتهى برضوخ مؤسسها وعودة اتباعه الى الصف الأول من الكاثوليكية الاجتماعية وقد عاب خصومها عليها فصل مفاهيمها عن العدالة والمساواة والكرامة الانسانية . (المترجم)

وعلى الرغم من الفارق العميق بين الوباء العقائدي رالوباء النفسي فإن « نجاح » العقائديات (في أن تصبح أوبئة ، ان لم نقــل ان تحقق سعادة البشر) يحتاج الى الاستعانة بـ « مطالب » نفسية .

أ ـ ان على العقائديات أن تكون آسرة للانتباه ، وأن تثير آليــات الحفظ بنوع ما من جراء غرابتها للوهلة الاولى . لقد نجحت المسيحية في الامبراطورية الرومانية لانها كانت تجلب « شيئاً آخر تماماً » وهذا الشيء الآخر عقائدي بقدر ما هو ديني ، وكان يفتّن الناس بالرغم من أنه كان يثير شعور الفضيحة لدى الدكاترة والفلاسفة . ولفت التحليل النفسي اهتمام الفكر بوجه الدقة من حيث جوانبه الاكثر قبولاً للمناقشة ، جوانبه الاكثر مباغتة : الحياة الجنسية لدى الرضع ، الرغبة الكلية في مضاجعة الام ، الشبقية الفيمية ، الاستية ، غريزة الموت ، الخ . وان التعديلات التي جاء بها (آدلر) Adler أو جاءت بها المدرسة الامريكية والتي أدخلها (فروم) Fromm و (ك. هورني) K. Horney وهي تقرّب التحليل النفسي من الحس المشترك ، وهذا الحس كان يحتفظ بالشيء الاساسي منها ويغلف مرارتها بالحلاوة ، هذه التعديلات جعلت التحليل النفسي أقل عدوى .

وقد فتّن مذهب (مورّاس) عقول الشباب من حيث مبالغته بطلب اصلاح الملكية بأكثر من جذبها بالعناصر المفيدة (وهي مستمدة في الغالب من « برودون ») التي كان المذهب يحتويها . ولم يحظ (برودون) نفسه بالنجاح العظيم الذي أصابه (ماركس) لان فكره كان معتدلاً مرهف المعنى (بالرغم من « العيار الناري الشهير الذي اطلقه في الشارع » : « التملك هو السرقة ») . وتزداد فتنة المادية التاريخية بزيادة استيلائها

على مجالات غير متوقعة وبقدر ابتعادها عن مركزها التطبيقي الشرعي ، لتستولي على هوامش تظهر هي فيها ظهور مفارقة واخزة : المثالية الفلسفية الالمانية باعتبارها « حيلة » برجوازية ترمي الى قناعة الشعب ورضاه بصحن الكرنب اليومي ؛ اناشيد الحركة بوصفها دعاوة لتجارة الخيـــل ؛ مسرح (راسين) Racine أو (موليير) Molière باعتبارهما من حلقات الصراع الطبقي ، الخ .

ان النظريات الماركوزية (حب العمل باعتباره عصاباً ، الخ) ، بعد نظريات (فوريه) Fourier و (ساد) Sade ، لقيت مناقشات لانهاية لها لانها تتسع لما هو اكثر من المناقشة . انها تثير الاهتمام . ثم يأتي : « أليس الامر حقيقياً آخر المطاف ؟» ثم : « عندما اؤكد ان الامـــر حقيقي ، فانني اثير بدوري الاهتمام » .

لذا تنجح العقائديات ، بالرغم من المفاجأة التي يشعر بها واضعوها ، أولاً في أوساط لا تهتم بتصديقها ، ولكنها تجدها « نافعة » بذاتها . وعلى الرغم من دهشة (ماركس) ، فان كتاب « الرأسمال » قد أثار في روسية لدى الارستقراطيين ، وفي بلاد ما قبل التصنيع وقبل الرأسمالية ، أثـــار اهتماماً اعظم مما أثار في المانية أو في انكلترة(١) .

ب — ان على العقائديات ، وهي تأسر الانتباه بجانبها الغريب ، أن تدغدغ غرائز كلية : الكسل ، غريزة السيطرة . وعلى هذا النحو يبـــدو التابعون « اقوياء جداً » بدون أن يكونوا مضطرين لبذل جهود جبارة . ان الطلاب (والراشدين) يقفون حيال العمل الضخم الماثل في التعلم ، في

---

(١) ب . د . ولف : الماركسية — (فايار ١٩٦٥ ص ٢٨) .
B.D. Wolfe: Le Marxime—(Fayard 1965)

تمثل العلوم ، والتاريخ ، في التسلق خطوة خطوة على جبال الثقافة المتراكمة ، يقفون موقف المتردد ، فيغلقون الكتب ، ويحصون أقلامهم . ان العقائدية وسيلة صالحة لكل شيء ، مفتاح كلي يتيح الحصول على « تفاعل ثقافي » متسارع بطريق كتاب واحد، وفكرة واحدة ، « كتاب مقدس » واحد يمكن تلخيصه في بضعة صيغ . ان تحليل الوقائع قد يكون شبه تحليل : النتيجة معروفة سلفاً ، ويبرهن عليها سلفاً . الاختراعات والابتكارات سهلة ، لانها تقوم على اعادة ترجمة كل شيء الى اللغة المقدســة . وان الفحوص العملية التي يرضخ لها المبتدئون بالمدي تشبه الفحص النهــائي لـ « المريض الخيالي »(١) ، لان من الجائز الاجابة عن الاسئلة كلها . حقن (بالماركسية ، او بالماوية ، او بالفرويدية ، او باللاكانية)(٢) ، ثم تغلب على (الخصوم) ويليهما توعية (المبتدئين) .

ان الحكم في المجال الاجتماعي عسير جداً عندما يريد المرء ان يأخذ باعتباره شتى التفاعلات . ويزداد الامر عسراً على عسر في حال العمل عندما لا يدري المرء ايان نقطة الاستناد التي ينبغي ان يضع فوقها الرافعة ، وعندما تشرع اية نقطة استناد بالاهتزاز . بيد أن العقائدية تتيح وضع قرار يحدد متانة مطلقة لنقطة العودة ، ومنها يمكن الحكم على كل شيء ، وتحريك كل شيء ، بدون ان يخضع المرء لحكم غيره ، ولا ان يحركه غيره ، وكأنه ينطلق من حصن منيع .

---

(١) Le malade imaginaire

(٢) Lacanisme نسبة الى الطبيب الفرنسي (جاك لاكان) المولود في باريز سنة ١٩٠١ وهو يذهب الى ان للاشعور بنية مثل بنية الكلام ، ويلح على تكوين المحلل النفسي . وقد نشر سنة ١٩٦٦ خلاصة بحوثه وتجاربه في مؤلفه « كتابات » Ecrits . (المترجم)

جـ ـ ان العقائديات مضخات كهربائية حقيقية تصلح لنفخ مـــن يعتنقها . فالتحليل النفسي يتيح سبر غور الدوافع الخفية لدى من يحيطون بالمرء ، وتتحقق بذلك السيطرة ، أو التحليق ، أو المعرفة ، أو الهزء من المهازل العائلية . وبالماركسية يسيطر المرء على المهزلة الاجتماعية : انه ينفذ الى حقيقة المؤسسات ، حقيقة لعبة الاحزاب والخصومات الدولية . ان ابسط حامل شهادة ثانوية ، يصبح بعد قراءة تستمر أربـــع او خمس ساعات للخلاصات عن (ماركس) و (فرويد) (ثم قراءة بعض نتف عن « ماو » أو عن «تشي غيفارا» Che Guevera) يصبح منفوخاً من الناحية الفكرية وكأنه دمية مطاطية ملأى .

والعقائديات العرقية ، النيتشوية ، الموّراسية ، تدغدغ الصلف على نحو مباشر اعظم . وان الملكيين عقائدياً ينصبون انفسهم بالفكر دعـــائم العرش بدلاً عن الارستقراطيين . وكل (غوبيني) يعتبر نفسه « من ابناء الملك » ، وفوق طغام « الحشو ، المضحكين ، البلهاء » .

د ـ على العقائديات ان تتيح قيام العارفين الاوائل بنشاط تبشيري مناضل ، مما يجعلهم لا يشعرون بأنهم فريق من القادرين وحسب ، بل من الرواد (واحياناً يحتمل أن يصحب ذلك استمتاعهم بوظائف المبشرين المحترفين المأجورين) . فمن الممتـــع ان يكون المرء ملـــح الارض ، وان يناضل من اجل المضطهَدين ، ضد المضطهِدين ، الذين يميط عنهم «لثامهم المضلِل» . وقد ترضى غريزة الانتماء الى نخبـــة بالنضـــال ضد « مذهب النخبة » ، وترضى الغريزة الارستقراطية بثمالة محاربة الارستقراطيين ، وترضى الغريزة العدوانية بالنضال ضد الحرب ، وترضى الغريزة الامبريالية بالنضال ضد الامبريالية .

وقد ترتدي غريزة الخصام التي يتصف بها العقائديون اشكالاً اصرح في الغالب . ولم تكره الاقلام ابداً ان تفسح الاسلحة امامها المجال .

ولا ريب في ان العقائديات السياسية تسبب من الحروب بأكثر — تسبب في الغالب منتوجات ثانوية للحروب ماثلة في الثورات الاجتماعية الممهّدة — مما تسبب المصالح الاقتصادية . وان العقائديين يعلنون اليوم ، كما يعلن الناس كافة ، فزعهم من الحرب . ولكنهم يسيئون تمويه تطلعهم الشديد الى اندلاع حرب اهلية . وكما يعمد المنتقدون السياسيون للحرب الدولية الى التصريح بأنهم ما كانوا يريدون الحرب — وان جريرة ذلك تقع على الشعوب التي جرأت على الدفاع عن نفسها ضد الغزاة ، — كذلك يلقي منتقدو الحروب الأهلية من العقائديين المسؤولية على كاهل الذين ارادوا حماية انفسهم ، حماية حياتهم ، وعقائدهم ، وخيراتهم . ويصدّق البسطاء . ان العقائديين المتعصبين للحروب الأهلية هم أبعد عن الصدق من الامبرياليين ، وهم يتهمون ضحاياهم بأنهم دافعوا بشراسة عن انفسهم . وان العقائديين الشباب يتمنون الحرب الاهلية لذاتها ، ويتمنون مغامـــرة الانصار المحاربين ، وعلى الاقل مثلما يتمنون الاستيلاء على السلطة ، وقد يصابون بخيبة أمل اذا لم يلقوا أية مقاومة في وجههم .

هـ — ان على العقائديات ان تدغدغ شعور التعاظم . اذا عجز طالب شاب عن أن يبتاع إلا سيارة قديمة من ذات الحصانين البخاريين بعد ان بذل المحال ، تجده يقلع عن منافسة سيارة السباق لرفيق غني ، ويعلن ، بضربات سمجة على غطاء سيارته ، انه لا يملك سوى « نعل » قديم ، ولكنه افضل بكثير من ذاك « الحذاء » ذي العجلات . واذا كان ينطوي على شيء من المكر توصل الى خلق عقدة النقص في نفس رفيقه الغني .

وانطلاقاً من ذلك يمكن تمييز نوعين من التعاظم . ان التعاظم هو دوماً شهوة الحصول على اعتراف الآخرين بالقيمة ، لا من جراء ما يصنع المتعاظم بل من جراء ما يجاوزه ، ما يبعده ، ما يعلن انه « غير موجود » . ان التعاظم (١) يقوم على المنافسة فوق خط واحد . (عندي سيارة اجمل ، اقوى ، من سيارتك ») . والتعاظم (٢) يقوم على الرجوع الى بعد آخر (« انني في سيارتي ذات الحصانين اذكى منك وأبرع ») .

وان الانتقال من التعاظم (١) الى التعاظم (٢) ، من التعاظم « المقيد » الى التعاظم « المضاد – للتقيد » ، هو اليوم ظاهرة اجتماعية مهمة جداً . انه ليس سمة نفسية مسلية تافهة . بل انه مرتبط بظهور طبقة جديدة بكل معنى الكلمة ، وقد جرت العادة على نعتها بأنها برجوازية ، ولكنها مختلفة جد الاختلاف عن البرجوازية من نمط القرن التاسع عشر ، برجوازية الاعمال . ان هذه البرجوازية (٢) تتألف بوجه خاص من اولئك الذين لا يمارسون الوقائع الاقتصادية – أو يمارسونها بسائق عقائدية مضافة وحسب – ولكنهم يجيدون الكلام ، بل ويحتكرون التعبير ، وبكلمة واحدة ، يؤلفون وفئة المثقفين شيئاً واحداً . ان البرجوازية (١) لم تكن تعرف سوى التعاظم (١) ، والمنافسة فوق خط واحد بالمال أو بالرضع الاجتماعي . أما البرجوازية (٢) فانها تمارس التعاظم (٢) . انها لا تستطيع المنافسة بالثروة ، بالوضع الاجتماعي ، ما دامت تعيش من رواتب محدّدة . وهي تريد ان تحيط نفسها بروعة طراز الحياة ، لا بروعة مستوى الحياة . وبكلمة وجيزة ، انها اشبه بالطالب الذي يعتز بسيارته (سيتّرون Citroën القديمة . اجل ، انها لا تبرقش بتبجح بؤسه – لانها تعيش بيسر كبير – بل تبرقش بتبجح اقلاعه عن منافسة البرجوازية (١) . وعوضاً عن

« الاستهلاك التبجحي » الذي تحدث عنه (فبلن) ، يظهر اللااستهلاك أو ضد الاستهلاك التبجحي .

و ــ ان على العقائديات أيضاً ان تتصف على الرغم من ذلك بصفة ايجابية هي صفة البناء الروحي الذي يتطلب حماساً متجرداً . ينبغي عليها ان تشبه وحياً شبه ــ ديني . ان الديانات التبشيرية ، بمقابل الديانــات العنصرية ، هي في الواقع عقائديات مطعّمة فوق اسطورية ابتدائية(١) . لذا نفهم حق الفهم لماذا تزدهر العقائديات الجديدة بخاصة عندما تجد في العقول فراغاً دينياً ونقصاً في الغذاء الروحي . ان وظيفتها « المعمارية » هي نفس وظيفة منظومة عقائد دينية . لم يكــن الفرنسيون الذين صنعوا (الثورة) (٢) يرتابون في قدرة الانسان على التكامل . « ان هذه العواطف ، وهذه الاهواء كانت اصبحت في نظرهم ضرباً من ديانة جديدة ، وهي تحدث بعض النتائج الكبرى التي رأيناها تنتج عن الديانات ، فهي تنتزعهم من براثن الاثرة الفردية ، وتدفعهم حتى الى البطولة » .

ان الدعاوة العقائدية تشبه انتشار الايمان : « اذهبوا واكرزوا لجميع الامم » . وعلى العكس ، ان حماس الدعاوة الدينية « لا يبدل طبيعته تبديلاً تاماً عندما يرتدي ثوب الدعاوة لمحبة النوع البشري او الدعــاوة الفلسفية » . ان الماركسية والماوية تتنازعان العالم الثالث كما تتنازعه الكاثوليكية والبروتستانتية والاسلام . وهي تحقق فيه انتصارات بينما تخسر من الناحية الروحية في بلادها الاصلية .

---

(١) انظر الفصل الرابع من كتاب : نقد المجتمع المعاصر للمؤلف نفسه والصادر في سلسلة « زدني علماً » رقم ٢٥ . الناشر

(٢) توكفيل : النظام القديم والثورة ــ (كاليمار « افكار» ص ٢٥١) .

العناصر الايجابية في العقائديات

ان التناقض هو بآن واحد تناقض حقيقي وظاهري بين الديماغوجي والبنّاء ، بين تسخير الشهوات وبين البناء البطولي احياناً . ومرد هذا التناقض الى القانون العام الذي يمزج مزجاً شديداً ، في كل ذي حياة ، الهدم بالبناء ، النار والاخماد ، الانتروبية والنكنتروبية . وان العقائديين يقدمون دائماً في وقت واحد تسهيلات وصعاباً صارمة ، ضروب تسامح وواجبات جديدة . ولا يوجد جانب وعظ قاس خلوق لدى انصار العنف اليساري وحدهم ، بل حتّى عند الهيبيين الشباب وهم يريدون الحب الحر ، ولكن باسم (الروح القدس) .

ولذا ينبغي ان تقوم حدود تحدد تحليل العقائديات تحليلاً كليياً و « مبسّطاً » (وذلك بأن يطبق عليها التبسيطات التي تستخدمها ضد خصومها) ، لان هذا التحليل قد يحمل على تجاهل عناصرها الايجابية — مثلما يتعرض التحليل (الأدبي) للديانات التبشيرية لخطر الانزلاق في السطحية . ففي ما يجاوز المطالب النفسية بالسهولة ، سواء في مجال الديانات أو في مجال العقائديات ، وخارج الانظمة القديمة والمحظورات القديمة ، يوجد مطلب روحي ، ايجابي ، واحياناً بطولي ، مطلب التجديد الذي يستند الى اساطير جديدة والى اخطاء جديدة ، ولكنها نضرة وتجدد نشاط الحيوية. عندما تشعر طبقة اجتماعية بأسرها بفراغ ، بفقدان مذهب يشدّ الاواصر ويقوّي الحيوية ، حتّى ولو كان مذهباً سلبياً مثل مذهب الصراع الطبقي ، أو الحقد على الرأسمالية ، فان هذه الطبقة الاجتماعية تعمل عملاً اجتماعياً . وان الحاجة الى أي مذهب هي التي تتغلب . المناضلون الشيوعيون يقدرون حزبهم كما لو كان « كنيسة » ، يقدرونه تقديرهم لامكان العيش

« عضوياً » . انهم يقبلون تأجيل الثورة كما قبل المسيحيون تأجيل رجعة المسيح في مجده ، لانهم سلفاً راضون روحياً عن (فصحهم) . ان عقائديات العنف اليساري أو العقائديات الباعثة على الفوضى تتطلع الى العثور مجدداً على حياة طبيعية ، في عنصر « طبيعي » ، بالخروج من عالم التقنية ، بل ، وبمعنى من المعاني ، من عالم العقائدية . ان العقائديات ، بصورة مفارقة ، تضاد بمضمونها العقائدي .

اننا لا نستطيع أن ندين العقائديات ادانة مطلقة كما لو انها ظاهرات مرضية . انها شر مطلق اذا هاجمت انظمة ما تزال حية بالفعل (ومن ناحية اخرى ، لا يكون لها في مثل هذه الحال حظ كبير بالنجاح) . وهي ليست سوى شر نسبي اذا كان النظام القديم محتضراً ، لان من الجائز عندئذ ان نقول عن النظام الروحي ما يقال عن النظام السياسي : عندما ينهار ، فينبغي ان نستعيض عنه بما يتوافر في متناول يدنا ، وان نظاماً ما ، أي نظام ، خير من العدم — ولو اضطررنا للاستعانة من اجل ذلك بالمدّامين انفسهم .

واخيراً ، فان العقائديات تصلح في بعض الاحيان « لقيادة » اصلاحات نافعة ، تصلح لـ « افكار العصر » التي تسري — كما يقول (كورنو) — تحت رداء العقائديات والطوباثيات ، والتي ينبغي عدم خلطها بالعقائديات الناقلة . من ذلك : منع الرق والاستعباد ، والاعتراف للمخالفين الدينيين بالمساواة في الحقوق ، وعدم التمييز العرقي ، والقضاء على الاستعمار ، والادانة الرسمية للحرب ، ومنع التعذيب والاشغال الشاقة ، وحماية الحيوانات وحماية الطبيعة ، ومنع عقوبة الاعدام ، وحرية الرأي ، والتربية الاقرب الى المساواة ، الخ .

اضف الى ذلك ان الدليل القاطع لم يقم على ان « افكار العصر » قد تربح كثيراً من هذا الطراز من السريان العقائدي . فقد يفسد العقائديون هذه الافكار ، أو يؤخرون ظهورها ، عندما يظهرون أمام الملأ بأنهم حصراً ابطالها . ان الشعوب الاقل عقائدية اليوم ليست هي أقل الشعوب تقدماً على دروب « تقدم العصر » . وان الشعوب التي يعلن الناس جميعاً عن انفسهم فيها بأنهم اشتراكيون ليست هي التي تنقل الى مؤسساتها ، وبخاصة الى عاداتها ، القدر الاكبر من الاشتراكية . وحين يضفي العقائديون صفة القداسة على الاصلاحات ، فانهم يحولون دون تكيفها وتحديدها تبع المنافع الواقعية وبحسب الحس السليم . واذ يتخذون من حرية الصحافة ، ومن التربية القائمة على المساواة ، ومن عقوبة الاعدام (وحتى ربما من عقوبة السجن ، كما يطالب بذلك بعض المتطرفين اليوم) يتخذون من ذلك كله محرّماً عقائدياً ، فانهم يمضون احياناً الى السدى والعبث ويؤخرون ما يقولون بأفواههم انهم يتمنون .

وفضلاً عما سبق ، يتعجل العقائديون وهم في سدة الحكم ، بوجه عام ، وابتغاء ضمان احسن « للوثبة العظمى الى الامام » ، يتعجلون الرجوع كثيراً الى الوراء ، ويعيدون الرقابة والاستعباد والتعذيب والموت ابتغاء السعادة الشاملة .

خاتمة

يترتب على كل كائن حي أن يحل مشكلة تكيفه البيولوجي . عليه أن يجد الوسيلة الى ان يحيا ويبقى في الحياة على الرغم من الاجناس التي تنافسه ، واذا امكن ، على حسابها . وقد عرف النوع البشري خلال زمن طويل المشكلة ذاتها . ووجب على الانسان بوصفه ملك الخليقة ان يكافح طويلاً ضد أتباعه ، ولم يستجب للتأهيل منهم سوى عدد قليل . ثم ، بالحضارة العقلية ، ولا سيما العلمية ، حل تلك المشكلة . ان الانسان يسود سيادة طغيان على الطبيعة الفيزيائية وعلى الطبيعة الحية . ولم يبقَ أمامه من اعداء خطرين الا الفيروسات . لقد اصبح صاحب الامتياز على الكرة الارضية ، بل ان انتصاره كان مفرط التمام . وكما ترتب على الولايات المتحدة الامريكية بعد الحرب العالمية الثانية ان تفعل حيال اوربه المسحوقة ، فان على الانسان أن يصنع خطة من نوع خطة (مارشال) Marshall للحد من انتصاره ذاته واقالة عثرة الطبيعة التي اصيبت بهزيمة مسرفة وذلك بحماية الحيوانات والنباتات والهواء والماء والارض .

واليوم تغدو مشكلة تكيف الانسان مشكلة مغايرة تماماً ، انها مشكلة داخلية . فالانسان المتمدين كائن مزدوج . ان الحضارة التي خضعت للفكر والحساب والحكم التقني والحكم الفكري وصارت اداة انتصاره البيولوجي ، هذه الحضارة من طبيعة فوق ـ الحيوية . وما النوع البشري ، بوصفه نوعاً حياً ، الا حامل الحضارة ، وهو يخضع لقوانين لا تتسم بأنها قوانين غير انسانية وحسب ، بل بأنها قوانين فوق ، أو تحت ـ العضوية . وان مـــا ينتجه الدماغ (باعتباره حامل أفكار تقنية وعقائديات) انما يخدم الحاجات

العضوية أول ما يخدم . ولكن ما ينتجه الدماغ يتعرض ايضاً الى مناقضة الحياة العضوية للنوع البشري . وباعتبار الانسان صاحب الامتياز على الكرة الارضية فانه يكف عن أن يكون ملك الخليقة ، بل وعن ان يكون مخلوقاً حياً . فلم يبق الدماغ عضواً حيوانياً يخدم الحياة ، يخدم الجسد ، بل انه عضو يخدم الفكرة . وبالدماغ يضاعف الانسان ذاته ، ولكنه بالدماغ يكون جلاّد نفسه . ان « مجسّم » القيم الحيوية ، وقد أفاد من التعبئة الآلية الناجمة عن اقترانه بمجسم القيم التقنية — العقائدية ، قد اصبح في بادىء الامر اعظم قدرة ، ثم سحقه نمو التقنيات والعقائديات نمواً ذاتياً .

ونحن اليوم نتأثر غاية التأثر باضرار التقنيات . انها اضرار حقيقية ، ولكننا نعتقد بأنها موضع مبالغة كبرى . وفي جميع الاحوال، لا مناص من التكيف مع الحضارة التقنية ، ما دامت وحدها تتيح تضاعف البشر ، وان كل نكوص الى الوراء — وبه يحلم بعضهم احلام رُضّع — قد يعني ضروباً رهيبة من الشقاء وضحايا يُقدّرون بالمليارات ، لا بالملايين . وقد نأسف لان الانسان قد اختار هذا الدرب الخطر للتقدم التقني . ولو حكينا نكتة شهيرة قلنا انه لو ظل ملك الخليقة لكان لا يزال على العرش . بيد أن الوقت قد فات جداً للرجوع القهقرى .

أما اضرار العقائديات فانها اسوأ . فالدماغ ، باعتباره منتج آفكار زائفة ، هو أشد خطراً بكثير على صحة النوع من الدماغ على اعتباره منتج تقنيات . وان عشائر « الحكام الفكريين »(١) اعظم خطراً من عشائر الحكام التقنيين ، والحكام التقنيون خطرون بخاصة عندما يكونون في الوقت ذاته « حكاماً فكريين » .

---

(١) Idéocrates

ومن غير المحتمل كثيراً ، لسوء الحظ ، أن يكون تأثير العقائديات آيلاً الى التضاؤل(١) . ومن المحتمل قليلاً ألا تكون العقائديات سوى نتيجة عابرة من نتائج تخطيط المدن ، وهو يخلق ارضاً صالحة وكتلاً بشرية يمكن ان تسري فيها العدوى سرياناً موقوتاً . ومن غير المحتمل كثيراً أن يكون مصير الثورة التقنية ، وهي تحذف كل عقائدية مصاحبة ، أن تجعل الذرائعية تسود الخصومات الاجتماعية .

ان الفوضى العقائدية اخطر من الفوضى الصناعية ، وسرعان ما تصحح ضروب التوازن الاقتصادي الفوضى الصناعية . ومن الممكن ان تصحح التقنيات المادية الضارة نفسها بتقنيات مادية اخرى . اما العقائديات الزائفة فلا تصحح نفسها الا بعقائديات اخرى هي مثلها زائفة . وعندما تريد العقائديات تصحيح التقنية ، فان طرائقها سمجة على نحو يجعل العلاج اسوأ من الداء . وليس مما يطاق أن نقبل منظور المستقبل الذي تمثله « ذبذبات الاستجمام » التقني العقائدي التي يشار اليها في نهاية « جزيرة طيور البطريق »(٢) : « خمسة عشر مليوناً من الناس يشتغلون في المدينة العملاقة ... » . ويعتقد الفوضويون ان مثل هذا العالم ، اللاانساني ، ينبغي أن يفنى . القنابل تهدم المصانع ، ثم الحضارة بأسرها . وبعض الناجين يعودون الى حياة المعّازين وينفخون في قصباتهم . ثم — والانسان يبقى هو هو — تعود مدن صغيرة ذات صناعة يدوية الى الظهور ، وتنمو الى مدن

(١) هذه هي نظرية (ز . برززنسكي) في كتابه : ثورة التكنوترون . (اسم مسجل للالكترون) — (كلمان ليفي ١٩٧١) .

Z. Brzeyinski: La révolution technétronique (C.—Lévy 1971)

(٢) L'Ile des Pinguins

صناعية كبرى . ثم من جديد « خمسة عشر مليوناً من الناس يشتغلون في المدينة العملاقة .. » (وهكذا دواليك)(١) .

والمشكلة ، بالبداهة ، هي مشكلة الافلات من هذا النوع من « التصحيح » بكوارث متكررة ، الافلات بآن واحد من الاضرار العقائدية ومن الاضرار التقنية ، والسعي لتنسيق المجسمين تنسيق علماء حياة ترجيحاً على تنسيق عقائديين ، تنسيق محافظين اذكياء لـ « مديرية المياه والغابات »(٢) للشؤون الانسانية ، ترجيحاً على تنسيق ديماغوجيين ثوريين .

وبازاء الفراغ ، بازاء الصحراء الدينية التي يضطرنا تهافت الاساطير على مجابهتها ، نستجيب لفتنة أن نقول في نفوسنا ان أي شيء افضل من لا شيء ، وان الافكار الاعظم زيفاً قد تصلح ، بنتيجة نزوات التاريخ ، روحاً دينية لملايين البشر ، وفي وسعها ان تشد أزر مجتمعات واسعة . ومن باب المفارقة أن نجد نظرية اقتصادية زائفة ، ونظرية للتاريخ اكثر من نصف زائفة ، وبرنامج توحيد اجتماعي يظهر عن طريق حرب اجتماعية تمهيدية ، نجد أن ذلك قد استطاع انعاش شعوب كبرى . ولكن هذا واقع . وربما قيل انه لا بد من شيء ما ليشغل الادمغة ، وان يكون له مظهر شمولي ، ان لم نقل مظهراً تسلطياً . وكما يتعذر اهمال درب التقنية التقدمية لاسباب مادية بديهية ، ولو اصبح هذا الدرب منهكاً وتكشف عن اخطار ، يقال ان من المتعذر أيضاً اهمال الدرب الموازي ، درب العقائديات الزائفة الاولية ، لاسباب غير مادية ، ولكنها اسباب لا تقل الزاماً عن تلك

---

(١) Da Capo

(٢) Eaux et Forêts

الاسباب ، فزعاً من الفراغ الروحي . ان كل عقائدية تخيب الرجاء ، ولكن سرعان ما ننتقل الى عقائدية اخرى .

كان (ليون برنشفيك) Léon Brunschvicg (بعد ان استمع بطريق المصادفة الى درس ديني يلقيه قس جليل ناهز سن الخرف على بنـــات صغيرات ساذجات) كان يتذمر من أن نقل الاساطير في الثقافة التقليدية كان يجري من الشيوخ الهرمين الى الاطفال . وفي الحضارة العلمية تشاهد العقائديات ، وقد اخترعها مفكرون غير مسؤولين يعتنقها دياغوجيون لا يشعرون بوسواس الضمير ، واعتنقها شباب متأهبون لقبول كل شيء ، فتسربت الى لاشعورهم ، واثارت حماستهم . وهذا ليس بأفضل ، بل انه اسوأ (كما لاحظ ليون برنشفيك ، على مسؤوليته) .

ان معظم العقائديات ، الى وقتنا الحاضر ، تقدم عن الواقع الاجتماعي صورة تشبه المجتمع الحقيقي تقريباً كما تشبه الانسان الحقيقي « الصورة الساذجة » التي يرسمها طفل في الرابعة من عمره ، ويجعل الذراعين يخرجان من الرأس ، ويجعل خمسة أو ستة خطوط تخرج من الذراعـــين على انها اصابع . وهذا مضحك وبدون خطر ، لان الطفل لا يطمح الى أن يصبح على الفور جرّاحاً يجري على مرضاه عمليات بهدي من صورته التي رسمها عنهم . ولكن المتعصبين لعقائدية يتخذون واجباً عليهم اجراء عملية جراحية للمجتمع بحسب « الصور الساذجة » التي عرضها عليهم معلموهـــم العقائديـــون .

ان المهمة الاولى تمثل في اقلال جاه العقائديات والثقافة العقائدية . ما فائدة أن نقبل تعذر الرجوع الى الديانة التقليدية ؟ لمصلحـــة الحس المشترك ، بكل بساطة . لمصلحة ما كان (صموئيل بتلر) يسميـــه :

« اليدغورية العليا »(١) ، لمصلحة الحكم الغريزي الصادر عن « مدام غراندي » Madame Grandy عليا ، أي عن الاجلال الانساني السوي عن الفكرة ، وهي حشوية اكثر منها دماغية ، فكرة ما ينبغي أن يكون عليه الانسان المفروض فيه انه عاقل ومعتدل ، ومتدين باعتدال ، بحسب المذهب المؤمن بالاله ، أو بالطاوية ، وهي الشيء الاساسي الذي يمثل سلفاً الحقيقة الخفية واللاشعورية للديانات التقليدية ، فيما يجاوز غراباتهـــا اللاهوتية . أما الوصفة (المزدوجة) التي يقدمها (بتلر) فهي : « على كل انسان جدير بهذا الاسم ان يكون له مثل اعلى رفيع ، وعليه ان يكون متأهباً للتضحية حتى بحياته في سبيله . ولكن عليه ان يكون متأهباً ايضاً لان يضع هذا المثل الاعلى جانباً ، وبدون تردد ، عند أول اشارة تبدر من الحس المشترك » .

ان الجسم الاجتماعي لم يتوصل بعد الى إعداد عفوي لاجسام مضادة اعداداً محكماً حتى ترد بها على المورثات المضادة العقائدية . وان طب المجتمع عاجز . وهو أعزل بازاء الاوبئة العقائدية ولا يملك لقاحاً . وقد ظل سلاح التهكم الى اليوم أمضى سلاح ضد الطوباثيين العقائديـــين المتطرفين . ولسوء الحظ ، فان العقائديات الحديثة الفيروسية قد تسلمت سلفاً ضد سلاح التهكم ، وهي تحبط جهود المؤلفين الهزليين الذين يمكن ظهورهم بأن تمنعهم وتعتبرهم « سطحيين » أو « خونة » . وقد أعلن سلفاً ان ارتكاس الحس السليم والصحة العقلية ارتكاس رجعي . ووصمت غريزة حفظ البقاء سلفاً بأنها مسعى محافظ ضيق . وفضح الحس المشترك على أنه فقدان « الابتكارية » . أما « الاغلبية الصامتة » فانها صامتة ، لا لانها

(١) Haut ydgrunisme

لا تجروْ على قول شيء ، بل بخاصة لانها لا تجروْ على أن تقول لذاتها شيئاً ، وقد بلغ ترويعها حداً يجعلها لا تستطيع الجرأة على ان تحكم على شيء من الاشياء في صميم كيانها الداخلي .

في مهزلة (لابيش Labiche) وعنوانها « سليمار المحبوب »(١) يهزأ زوجان مخدوعان احدهما من الآخر ويصرخان في السر : « موليير ! اين فرشاتك ! » . وان « الازواج المخدوعين » للعقائديات ينظر بعضهم لبعض نظرة خطرة كئيبة وهم يكتشفون ، في ضوء معلوماتهم المستقاة من علماء التحليل النفسي ومن الماركسيين ، يكتشفون عتمة ذنبهم ، ولا يكتشفون بؤسهم .

هلاّ نستطيع ، لعدم توافر طب اجتماعي ، ان نقترح بعض تدابير حفظ صحة عملية واختبارية ، ضد الاوبئة العقائدية ؟

لجنة الغش العقائدي

ان اكثر الطرق مباشرة — واسوأها — طريقة تشكيل لجنة الغش العقائدي كما توجد لجنة الغش الغذائي ، وكما توجد دوائر للتحقيق في صحة الموازين والمكاييل ودائرة « الحقائق » من اجل المبتكرات التقنية الجديدة . وأن مثل تلك اللجنة قد تكتفي بارغام بائعي السموم الدماغية ، مثل اضطرار صانعي السجائر في امريكة ، على وضع اللصيقة التالية على كتبهم ونشراتهم : « خطر على الصحة العقلية والاجتماعية » . وهذه اللجنة قد ترغم بائعي الكتب ، بوجه عام ، على ان يذكروا على غلافها ، كما يذكر صانعو

---

(١) Célimare le Bien-Aimé

(٢) Veritas

البسكويت والسكاكر ، بياناً بتركيب المستحضر وعناصره المكونة وتزييناته الكيميــائية .

ان مثل هذه اللجنة ليست بالامر الطوباني ، ونحن نعلم ان في الدول التسلطية توجد على الفور رقابة عاملة بحزم وصرامة وهي تراقب وتعاقب ولا تكتفي بواجب وضع اللصيقة التي تعلن عن اللون أو المضمون .

والأمر اليوم ، في الغرب ، هو ألا تطرح مثل هذه الطريقة ، لان اللجنة الرسمية لو شُكلت لسارعت الى العمل باتجاه مقلوب وغدت عشيرة فئة المثقفين المعترف بها رسمياً وهذه تفضح وجود « فاشية » حيثما لا توجد ، أو توجد في صورة اشلاء ، بينا لا ترى الفاشية حيثما توجد وجوداً يفقــأ النظر ، وراء اسماء اخرى .

وعلى الرغم من ذلك لا يخلو من فائدة وجود مكتب خاص غير رسمي للغش الفكري . وهذا المكتب سيكون شبيهاً بـ « الحرمان البابوي » القديم ، أو بالرقابة الكاثوليكية على الافلام . وهذا المكتب قد يعوّد ، على الاقل ، قسماً من الجمهور على فكرة أن من الجائز ، ومن السوي ، الحكم على ما هو حق أو زائف ، على ما هو سليم أو ضار ، عوضاً عن بلع كل شيء ، بنتيجة الترويع أو الارهاب بالنظرات المحتقِرة التي ينظر بها شذراً انصار اللاتواكل ذوو الرأي الموَحّد المحدّد .

واذا ادانت اللجنة (غير الرسمية) الغش تمتع المحكوم عليه بحق الجواب والدفاع . ولكنه مطالب بأن يبين بدقة ، واذا امكن ، بأن يذكر بالارقام النتائج التي يمكن التنبؤ بها باليسر الممكن الاكبر ، نتائج « الافكار » التي يطالب بتطبيقها ، وأن يبذل جهداً لحساب طرائقها و « رذاذها الملوّث » ومحاذيرها . وبما ان كل عقائدي يعتز بأنه عالِم مستقبلي ، فليس في وسعه

ان يتذمر من دعوته ، على هذا النحو ، لممارسة علم أولي بالمستقبل .
واذ ذاك يصبح من المحظور ، باتفاق متبادل ، اللجوء في المناقشة الى الاستدلال التماثلي والاستعانة بسلطة رجل أو حزب .

وزارة ثقافة ؟

ولكن لننتقل الى اقتراحات اكثر جدية . ان في وسع الحكومات ، وهي مرغمة على أن تدع العقائديين يلهون بحرية تامة ، ألا تشجعهم على الاقل ، وبصورة خاصة ألا ترقى بهم الى منزلة شراغيف الضفادع أو السمكات الصغيرات الملقاة في أحواضها لتكبر وتتكاثر . وهذا بالرغم من ذلك هو ما يتحقق في الغرب ، كما نعلم ، بل ومن اجل الدفاع عن الذات في الدول الشيوعية ، بنتيجة صعوبة تفريق الثقافة الفنية — وهي أمر لا غنى عنه — عن الثقافة العقائدية . إن كل ثقافة تحظى بالتشجيع لا تلبث ان تنقلب ، من جراء الارغام ذاته ، عقائدية وأذى . وكل ثقافة محمية لا تلبث ان تنقلب ثقافة تجريبية ، متكلفة ، عقائدية، أوستقراطية بالمعنى الاسوأ للكلمة ، مفصولة عن الجمهور ، وسرعان ما تعمل ضد الجمهور وهي تمذهبه ، على الرغم من تمويهها بنعوت من مثل نعت « ديمقراطية » ، « شعبية » ، « في خدمة الشعب » . ان انصار الثقافة ينزعون ، في احواض وزارة الثقافة ، الى اعتبار تجاربهم آثاراً ، واعتبار ثوراتهم المنهجية تقنيات ابتكارية ، واعتبار طوباثياتهم أسس مجتمع جديد . كل شيء يشرع بأن ينقلب عقائدية ، مثلما تنقلب الخمور كلها خلاً واحداً .

ان من المتعذر تبرير وزارة ثقافة كما يتعذر تبرير وزارة أديان قد تثير اعادتها الصراخ . بل إن وزارة الثقافة امر يتعذر تبريره على نحو أعظم . ذلك ان العبادات والديانات حوادث جمعية بالدرجة الأولى ، وهي تخدم

الحياة الجمعية . في حين ان الثقافة ، بالمعنى الصحيح ، هي مجرد اسم الحياة الجمعية ، وليس في الثقافة شيء يمكن تمييزه أو ادارته — وبالمعنى الضيق الثقافة مسألة فردية. واذا أراد وزير الثقافة ارثوذكسية ثقافية كان مطلبه مما يتعذر الدفاع عنه كما يتعذر الدفاع عن ارثوذكسية دينية مفروضة فرضاً . أما اذا أفسح المجال لنمو ثقافة منحرفة هدّامة ، أو شجعها ، فانه أحمق بلا ريب .

●

وهذه هي الحال المألوفة اليوم في الغرب . وبينما لا نتخيل جيداً ان تنفق حكومة شيوعية على كتّاب وفنانين يعملون على نقد الماركسية أو المادية والهزء منها ، بغية التبشير بثورة « غربية الاتجاه » . ويفسر عقائديو اليسار ، من جهة اخرى ، هذا التضاد كما كان (لابروبير) La Bruyère يؤول حادث ان السياميين كانوا يتحملون المبشرين المسيحيين ، في حين أننا قد لا نتحمل محاولة (التالوبيين) Talapoins هدينا . لقد كان (لابروبير) يرى في ذلك دليلاً على صحة المسيحية : « ما الذي يُحدث ذاك التأثير في نفوسهم ونفوسنا ؟ أليست هي قوة الحقيقة ؟ » . انه لدليل على الحقيقة طريف ، قوامه « شدة ما لا يطاق » .

●

أما ان يريد الوزير ثقافة حيادية من الناحية السياسية والاجتماعية فلم اذن يشتغل بها ؟ ان دوره الوحيد الذي يمكننا تصوره هو حماية كنز الثقافة التاريخية بتراثها وآثارها . أما الثقافة التجريبية فانها مشكلة الافراد ، مثل الزواج . وفي وسع الدولة ، عند الاقتضاء ، ان تشجع نسبة الزواج بوجه

عام ، اذا رأت ذلك مناسباً ، بتدابير مالية . ولكن ليس في وسعها اقامة صيدليات الزواج التجريبي ، وتسمية وسطاء من الموظفين .

ان وزيراً للبحث العلمي يمكن ان يلقى تبريراً اعظم من تبرير وزير الثقافة ، اذا ظل أميناً للقبه ، ولم يعتبر « علمـــاً » دراسات اللاهوت الاجتماعي المتسترة وراء قناع « العلوم الانسانية » . وهنا ، كما في أي مكان آخر ، يسهم الاستدلال بالمماثلة في خداع الجمهور – بالفكرة المبسّطة القائلة بأننا اذا انفقنا قدراً من المليارات على هذه العلوم المزعومة كما ننفق على العلوم الفيزيائية استطاع العقائديون أن يعرفوا كيف يهبطون بنا فوق أرض (الطوباتية) أو في (اركاديه) ، هبوطاً أميناً ، تماماً مثلما عرفت N.A.S.A (١) كيف تنزل بشراً الى القمر . اجل ان الاكثار من البعثات « المتقدمة » أمر يسرّ الباحثين الرواد الذين لا يكادون يتعرضون لخطر الطوارىء مثلما تعرضت (ابولو ١٣) Apollo XIII . ولكن المردود الوحيد الذي يمكن تقديره هو في مجال العقائدية ، لا مجـــال العلم . ان « المبشّرين » يحترسون كل الاحتراس من الرضوخ لغواية قطع صلاتهم بالارض – نعني بالمركز القومي للبحث العلمي C.N.R.S الذي يغذيهم – كيما يبقوا في القمر – نعني في (اركاديه) التي اكتشفوها ، بالرغم من الغوايات التي يطلعوننا عليها فعل (ادغار موران) بازاء الجماعـــات الهيبية .

اننا لا نستطيع ، بصورة معقولة ، اقتراح كبح جماح الاختراعات التقنية . فالبشرية ما تزال بحاجة ماسّة اليها ، وان تحسين التقنية يصحح في

---

(١) الادارة القومية للفضاء والبحوث الفضائية – في الولايات المتحدة الامريكية .
National administration for space and aeronautics

الغالب الاسواء الناجمة عن تقنية ناقصة . ولا تكاد الاختراعات « التحركية » – أي التي تتناول لوالب وآليات وتجهيزات – أن تكون ذات محاذير عظمى . ولكن قد يكون من الجائز كبح جماح استهلاك الطاقة ، بفرض رسوم تدفع على « الابحارات » التي تلوث الهواء والماء كما هي الحال بالنسبة للارض .

ومن المحال ان نقيم تمييزاً مماثلاً في مجال الاختراعـــات والاضرار لعقائدية . وعلى الرغم من ذلك فان من الممكن اقامة معـــادل تقريبي جداً يكافئ ذلك بأن نفسح المجال ، بل بأن نشجع دراسات التاريخ دراسة « مرهفة » (تاريخ الوقائع وتاريخ المؤسسات معاً) وأن نمتنع ، عـــلى العكس ، عن تشجيع المنتجين المتطرفين للنظريات ، للرموز الفكرية ، وللبرامج « الحركية » . ذلك ان هؤلاء « المنتجين » هم في الواقع مستهلكون يسيئون الافادة من « البراعة » الاجتماعية ، وهم يلتهمون مولد الحموضة .

وجلي أنه ينبغي منع الدعاوات العقائدية في مجالات التعليم على اختلاف درجاتها واعتبارها تشويشاً يعرقل العمل الجاد في اكتساب المعارف والمهارة التقنية . ان دراسة المؤسسات السياسية وتاريخها دراسة علمية ليس « بممارسة السياسة » ، كما ان « ممارسة السياسة » ، على العكس ، ليست سبيلاً من سبل « القيام بدراسات » – مثلما حاول عقائديو « العمل » Praxis ووزراء ديماغوجيون نشر الاعتقاد به .

عقائدية – مضادة ، الاجر الموحّد بين الموظفين

ولكن لا بد من تدابير اسبرطية لتخفيف الضغط الاجتماعي على الغشاء شبه – الصفيق أو على الدوار ذي الحركة الوحيدة الاتجاه الذي يتيح الانتقال من خدمة القيم الاساسية الى خدمة أخف وأظرف هي خدمة القيم

الرمزية ، يتيح الانتقال من المجتمع الحقيقي الحي الكادح الى مجتمع « قمري » وعقائدي .

قد تكون الوسيلة الى تخفيف الضغط ان نحاسب العقائديين القائلين بالمساواة تبع دعواهم وأن نطبق عليهم علاج المداواة بالداء . انهم يألمون من التفاوت بين الفقراء والاغنياء ، بين الشباب الهزيلين المكروبين وبين الشيوخ أولي النفوذ . وعلى هذا فانهم لا يستطيعون استنكار أن تبدأ الدولة باقامة المساواة في القطاع الذي تشرف عليه ، بأن تقرر ، إن لم نقل المساواة التامة في رواتب جميع الموظفين في جميع المجالات ، فعلى الاقل تقرر انسحاباً شبه تام للمروحة ، للفئات وللقدم .

والواقع ان ليس ثمة اي مبرّر اخلاقي أو اجتماعي يبرّر هذه المروحة المبسوطة بسطاً عريضاً . وكذلك لا يوجد مبرّر اقتصادي . ان تفاوت احوال النجاح « المادي » أمر لا غنى عنه للفاعلية الاقتصادية مثل ضرورة تفاوت درجات الحرارة في الآلات الحرورية . ولكن الامر غير الامر بالنسبة للفاعليات الاخرى . وقد لاحظ (ريمون آرون) أن اشرف الوظائف ، واكثرها بعثاً لسرور الممارسة هي أيضاً اعلاها راتباً . وهذا صحيح كل الصحة ويمكن القول ان ليس ثمة أي سبب يحملنا على ان نبرّر مرتين ما قد لقي تبريراً كافياً بالشعور بالتقدم الانساني .

ان التسوية الاقتصادية قد تحقق منفعة افساح المجال أمام اكثر المواهب تنوعاً ، بدون أن تزيفها بمقياس الاهمية القصوى للتحريك الاقتصادي . ان التحييد الاقتصادي قد يكون نافعاً في علاج مشكلة الانسان « الوحيد البعد » ما دام يتيح لـ « ابعاد » وللمواهب المختلفة ان تؤكد ذاتها ، ويتيح لعشاق السلطة وعشاق الهدوء ، لمحبي النوع البشري وللجماليين ،

يتيح لهم ألا يشعروا بأنهم أدنى من زملائهم في الوظيفة الواحدة ذاتها أو في وظيفة اخرى ، على صعيد الحياة المادية . ان موهبة الاعمال ، والتطلع الى المجازفة وحمل الهموم ابتغاء الفوز بفرصة ربح ضخم ، قد تصبح ممارستها خارج مجال الوظيفة وخارج مجال الصناعات التابعة للدولة (وهذه الصناعات تتطلب ، باعتبارها قطاعاً مشتركاً ، بعض مخالفة قاعدة المساواة) .

ان الراتب الموحّد ، وانقل ، كيما ندفع طوباثيتنا الى حدها الاقصى ، (الاجر الموحّد بين الموظفين) .S.U.I.F (١) ، سيكون قريباً جداً من ادنى الرواتب المدفوعة اليوم . ذلك ان انساناً تقدمياً واحداً لا يمكن أن يستنكر ، ما دام يتطلع بلهفة الى ألا يعيش عيش البرجوازيين لا يستنكر هجر كل مهزلة عصرية وكل انفاق تبجح ليس سوى تأكيد طبقي .

ان قطاع الاقتصاد الخاص ، اذ يبقى – وينبغي أن يبقى زمناً طويلاً ما دام الاقتصاد التابع للدولة يستمر في اكتشاف ان مردوده أدنى من مردود اقتصاد السوق – ان قطاع الاقتصاد الخاص ، على العكس ، يكون هو مجال الاجور والرواتب الحرة ، ومجال الارباح الضخمة ما دامت هذه الارباح ثواب المجازفة . ان اجور العمال ، ولا نقول المهندسين وحدهم ، ستنجح بالطبع من جراء تقدم الانتاجية الى ان تكون أعلى من « الاجور الموحّدة بين الموظفين » ، ولا يمكن اللحاق بها إلا بعد لأي . وهذا لن يكون إلاّ عدلاً ، لان عمال الصناعة يشاركون هم أنفسهم – بتأخر – في تقدم الانتاجية العامة ، لا بسبب الاقتطاعات التي يأخذها أرباب العمل

(١) **Salaire unifié inter-fonctionnaires**

كما يقول (ماركس) ، بل من جراء التسوية الآلية بين الاجور لصالح من هم أقل المنتجين جودة انتاج(١) .

وسيكون خطر الطريقة ، على ما يبدو ، في اقلال جاذبية العمل الوظيفي ، وازدياد جاذبية التجارة . ولكن أليس شر عصرنا ماثلاً في الحركة العمياء للصناعة والانتاج المهووس للسلع الاستهلاكية ؟ أليست المشكلة مشكلة كبح المنتجين ؟ لقد رأينا الى أي مدى يكون الكبح الذي يزعمون اجراءه بالاكثار من الوظائف ذات الانتاجية الضئيلة ، هو اسوأ طرق الكبح لانه بآن واحد كبح خطر وظالم . ولكن ، اخيراً ، لا بد من كبح ما . بيد ان عقائديتنا المضادة تبدو انها تزيد تسارع ما كان ينبغي ابطاؤه .

اننا نرى ان هذا الانطباع زائف . وان الصرامة في المساواة في قطاع الموظفين لا تشكل وثبة عمياء بالنسبة للاقتصاد ، وانما تجعله معتدلاً . ان الوثبة الاسبرطية للموظفين الكبار ستكون بمثابة قدوة يحذو المجتمع بأسره حذوها . ان البرجوازية (٢) اليوم ، وكما كان (لينين) Lénine يقول : «السادة المثقفون بمظاهرهم الارستقراطية» انهم يزعمون انهم يتنطعون للعيش على نفقة الدولة عيش ترف مثل عيش البرجوا زية (١) (أو بالحري الفئة الضيقة من هذه البرجوا زية (١) التي فازت بحصص الاسد) ، وهم في الوقت ذاته يسخرون من الدولة ، ويتظاهرون ، مع مضيهم الى الطرف الاقصى الآخر بطريق المجابهة ، بأنهم يتشردون في اشخاص بعض الشبان الذين يبصقون على ترف والديهم . وحين يخضع الموظفون بجملتهم الاجور الموحّدة بين الموظفين ، قد يوضحون ، على العكس ، امام كل ناظر ، أن ثمة تفوقاً بشرياً خارج تفرق الثروة .

---

(١) انظر ما سبق الفصل الثامن في كتاب : نقد الايديوجيات المعاصرة للمؤلف نفسه والصادر في سلسلة « زدني علماً » رقم ٤٠ .

ان الاغنياء ، في نظر الشعب ، حتى اليوم ، هم اغنياء الاقتصاد أو أغنياء الادارة والسياسة . ومنذ أن يعيش جميع الموظفين و « اولي النفوذ » عيش الاعتدال يمتنع خلطهم بأغنياء التجارة ، كما يمتنع منذئذ خلط اغنياء التجارة بالموظفين الكبار أو بالنخبة المتعلمة أو المثقفة .

وقد يظل اغنياء التجارة يتمتعون بجاههم النوعي — وهم به جديـــرون من ناحية اخرى لان موهبة كسب الثروة موهبة من المواهب ، وعلى الاقل انها موهبة تنفع جميع الآخرين مثل سائر المواهب . بيد أنه سيكـــون جاهاً غير متميز عن انواع الجاه الاخرى ، ويكـــون من اليسير عندئذ على الحس السليم الشعبي ان يعيده الى منزلته الصحيحة المشروعـــة . وعوضاً عن أننا عندما نرى اليوم (فيلاّ) ضخمة أو سيارة فارهـــة لا نستطيع أن نعرف هل هي ملك تاجر ناجح أم « متنفـــذ » أم موظف كبير ام وزير ، أم ، في احتمال قليل ، ملك اسقف . وعندئـــذ يصبح المجتمع متعدد الابعاد ، أو على الاقل ، ثنائي البعـــد ، حيث يكون « الاغنياء » مجرد اغنياء ، ولا يكونون اعضاء « طبقة — عليا — في — جميع — الانواع » .

وسيعترف الباحثون أن اعادة النظام — أو الانظمة — على هذا النحو ، ستكون طريقة افضل من طريقة رجم واجهات المخازن بالحجارة ، والاستيلاء على انواع جديدة من (الباستيل) ، وهي طريقة جوفاء كسابقتها ، أو طريقة نسف (باريز) و (نيويورك) لكي يتعلم (الباريزيون) وسكان (نيويورك) كيف ينبغي أن يعيشوا . وعوضاً عن الجماعات الهيبية — التي لا تتألق فضيلتها الانموذجية إلا في نظر بعض العقائديين ، والتي تؤثر بالتضاد في نفوس سواد الفانين — تكون لدينا طبقة الموظفين الواسعة المبجلة

بأسرها ، ويعيش أهلها عيشاً كريماً أنيقاً في ظل « الاجور الموحّدة بين الموظفين » ، ويظهرون للناس كافة وعلى نحو أجدى من مجرد وعظ الدروس الاخلاقية وكتابة جمل مأثورة فوق سبورة المعلـــم (توباز Topaze)، يظهرون : ان « المال لا يشكل السعادة » .

واليوم ، يلتحق ابن موظف كبير في الغالب ، وهو يشمئز من برجوازية والديه ، يلتحق بصفوف العقائديين المتحمسين ، بآن واحد من الرئيس المدير العام (.P.D.G) الذي قرف من ترف والديــه . فــاذا كفت البرجوازية (٢) عن اثارة شعور الفضيحة في نفوس ابنائها بالذات ، نقص انصار العقائديين الى نصف عددهم ، على الاقل . ولكن جاذبية الحياة البسيطة — البسيطــة ببساطة — قد تحل محل فتنة التشرد الشحيح الخانق ، وقد يزداد تأثير الاسبرطيين الجدد على جميع أجيال البرجوازية (١) .

ترى هلاّ تخرج عقائديتنا المضادة عن انها طوباتية؟في الواقع ، ان الدول الجديدة أو الثورية كلها بوجه التقريب : بلدان العالم الثالث ، كوبا ، حكم الصهاينة ، شيلي ، تبدأ بسحب مروحة الرواتب . الوزراء يمتطون سيارات (جيب) أو الدراجات النارية . وهذه الوثبة الجميلة لا تدوم طويلاً . اذ سرعان ما تحين لحظة تحل فيها ، كما في (هافانا) ، سيارات (الفاروميو) الوزارية محل سيارات ال (جيب) . هل نستطيع أن نتهم بذلك التأثيــر الشرير للمصارف ولاتحادات الشركات الاحتكارية ؟ بالطبع كلا ، ما دامت الرأسمالية قد أبيدت . وحيثما تبقى الرأسمالية ، كما في حكــم الصهاينة ، فان مرحلة الصرامة بالمساواة تتكشف على انها أدوم . ولذا يمكننا أن نفكر بأن طريقة القطاع المشترك ستحافظ بصورة افضل على المساواة

المنشودة . ذلك أن موظفي دولة اشتراكية فعلاً ينتهون الى مس الاقتصاد ، وتوجيهه ، وسرعان ما يكتسبون عقلية الرأسماليين القدامى . ان الناس لا يستطيعون ، بدون خطر ، خلط الانظمة والمعايير . فاذا اراد المرء كل شيء ، أدخل العشوائية الى كل شيء . واذا اراد الموظفون السياسيون أن يكونوا صناعيين وتجاراً ، أسسوا دولة صناعية وتجارية لا تكاد تتميز عن الدولة الخاضعة للرأسماليين .

أما اذا ارادت الدولة ، على العكس ، أن تكون نصف اشتراكية ، واذا ابقت على كل القطاع الاقتصادي ذي الاستقلال الذاتي الى جانب قطاع المساواة ، كانت حظوظها أكبر في أن يكون لديها بصورة غير محددة موظفون انقياء وصارمون لا يدنسون أيديهم بالاقتصاد ، ولا تفسدهم طبيعة وظائفهم بذاتها . ان فصل القيم مهم مثل اهمية فصل السلطات ، وهو مفتاح هذا الفصل .

اجل ، لا شيء يجيز من الناحية النظرية توحيد الموظفين والعقائديين كما فعلنا على ما يبدو : ولئن كان (نيتشه) و (ماركوز) و (سارتر) موظفين ، فان (روسو) و (برودون) مثل (موسى) أو (سقراط) Socrate كانوا يعيشون « على نفقتهم » الخاصة .

ونحن لا ننسى ، من جهة اخرى ، ان العقائديات كلها لا تقول بالمساواة. بل ان قسماً كبيراً منها يقول بذلك ، وفي هذه الحال ، فان اقتراحنا « الاجور الموحدة بين الموظفين » يصلح على الاقل رائزاً يستخدمه العقائديون الذين –كل شيء يحدث – قد يشعرون بمزاج القيام بالتحليل الذاتي وبقياس شدة قناعاتهم . فاذا كانت مجرد فكرة « الاجور الموحدة

بين الموظفين » تجعلهم يهزون كتفهم هزءاً ، فانهم ما زالوا يضمرون بعض الشك حول صدقهم .

●

ان الاوبئة التعاقدية هي الشر الاعظم في القرن العشرين . وعلى نقيض الافكار المبيّتة ، ان شرنا النوعي لا يمثل في التسارع التقني ، ولا في صدمة العلم المطبق على المجتمع كما يقولون . أجل ، ان هذا التسارع التقني ، من حيث انه المحرك الاساسي للتغيرات كلها ، ذاته دوماً السبب العميق لمشكلات التكيف العسير كلها ، كما يجعل تشغيل الصواريخ لاطلاق سفينة كونية ، يجعل ملاّحي الفضاء المثبتين في مقاعدهم يتعرضون للحظات شاقة . ألا ان التسارع يحدث تأثير صدمة حين يسرف في كونه قاسياً . ولكن التسارع بذاته حافل بوعود الرقي والتقدم . والتسارع ليس شر القرن العشرين إلا بصورة غير مباشرة ، من حيث نتائجه غير الخاضعة لرقابة الادمغة ، بـ « الحجاب الاسود » الذي يثيره التسارع فيها في شكل أفكار زائفة — وبقول آخر بالعقائديات التي يبعثها .

ان ضروب التقدم كانت ، في القرن التاسع عشر ، ان لم نقل مماثلة بالسرعة ، فانها مماثلة بالاهمية : البخار ، السكك الحديدية ، الكهرباء الصناعة الكبرى ، لا تقل اهمية عن الطاقة الذرية ، والطيران ، والنظامات ، وإعلام الجماهير الالكتروني . وعلى الرغم من ذلك فقد هضمت ضروب ذاك التقدم هضماً أفضل — بالرغم من اضطرابات شتى ناجمة سلفاً عن اصل عقائدي أكثر منه عملياً — وقد ظل معاصرو البخار والكهرباء يحتفظون بتفاؤلهم بوجه عام .

ان عصرنا لم يخضع لتسارع أعظم من تسارع الثورة الصناعية الاولى .

ولقد غيّرت الطاقة الذرية الحياة بأقل مما غيرتها الطاقة الكهربائية . وقد كانت نافعة في العلاقات الدولية . أما النظامات فانها أثارت استباقات هذيانية بأكثر من أن تثير تغيرات ملموسة. وقد حلت الطائرات محل السفن بدون اشكالات كبرى. وان وسائل الاعلام الجماهيري الالكترونية التي تبالغ (الماكلوهانية) بأهميتها ، لا تعدل، باعتبارها صدمة ، صدمة المطبعة ولا حتى الصحافة الرخيصة الثمن في القرن التاسع عشر. وتنفرد السيارة ، وازدحام السيارات، وهذا شيء شبه كارثي، بانهاك الاعصاب لابهام جاذبيته وضرره معاً .

أما الشيء الخاص بعصرنا فهو سيادة العقائديات وتشكل كتل كبرى من الجماهير التي يمكن أن تصاب بسريان العدوى فيها . فعوضاً عن أن يوجد (بوفار) واحد و (بيشو) واحد ، و (زيد) على طريقة (فوريه) واحد أو (عمرو) على طريقة انصار الثقافة واحد ، توجد الملايين منهم . ويلازم ذلك تناقض الوزن – المضاد – أي كتلة المزارعين والعمال – والتجار، وجميع الذين يحتكون بالاشياء مباشرة والذين يهتدون بهدي التجربة المباشرة والحس المشترك . وان المجتمع يفقد توازنه من جراء ازدياد كتلة الذين يحتكون بالكلمات ، وبالافكار ، وبالتأملات النظرية ، والذين يشتغلون بتمثلها ونشرها وفي العيش في « المجسم العقائدي » ، في التجارب الذهنية بأكثر من ان يحيوا في تجارب واقعية .

ومن الجلي انّ الامر سينتهي بالعثور على سبل أفضل لتعايش « المجسّمين » . ولا يخطر في البال ان تكون المسألة مسألة ادانة الافكار لانها تصبح عقائديات في الادمغة الضعيفة ولا ادانة « الفكر » على طريقة اعداء التفكير من الالمان ، من (كلاج) Klages الى (روزنبرغ)

Rosenberg ، لان ذلك يضاد « الحياة » . ان الافكار ، والفكر ، والمعرفة ، والذكاء ، « خيرات » . وان مذهب « عداء – الفكر » لا يخرج عن انه عقائدية ، وربما اسوأ العقائديات طراً . ان شعباً من الشعوب ليس البتة مسرف الذكاء ، أو مسرف « المعرفة » . وان حياته حياة أفضل اذا عاش بحسب الجسد وبحسب الروح . وانما نقص الذكاء هو الذي يجعل من العسير تكييف الشعب مع التقنيات الجديدة ، والافكار الجديدة ، وهو الذي يحوّل النظريات (وفيها قسط من الحقيقة) الى عقائديات مبسّطة واعتقادية ومترمتة وهذه العقائديات بالنسبة للفكر كالمذهبية الفكرية بالنسبة للذكاء .

وبانتظار أوقات افضل ، ثمة اليوم واقع ، وهو أن العقائديات الوبائية كارثة عظمى . ولا يوجد أي علاج منظور – باستثناء علاجنا (بالطبع) الماثل في « الاجور الموحّدة بين الموظفين » .

وعندما تبدأ عقائدية بالانتشار في كتل شبه – مثقفة ، لا يكاد يوجد أي أمل في وقف انتشارها ، ولا تكاد توجد فائدة من المحاولة . وكل جهد ينفق بهذا الاتجاه مليء بالاخطار تتهدد الشجاع الذي يريد أن يرتكس ، فيتُهم بأنه يسمم الآبار وهو يود تنقية مياهها . ولا يمكن سوى : إما الفرار أو الصمت والاقتصار فقط بسائق الكرامة على عدم العواء مع الذئاب .

ان المرء لا يستطيع الا الانتظار ، انتظار أن تصطدم العقائدية المنتصرة بالواقع . وبدون أمل ، من جهة اخرى ، في أن تعود الواقعيـــة في وقت قريب . ذلك أن من الممكن التنبؤ بأن فيروساً آخر ، أو أن عنصر طفرة يصدر عن الفيروس الاول وهو شبيه بنموذج جديد من الفيروس الرشيمي ،

يجعل التلقيح بلا جدوى ، وهو سيظهر في دائرة وبائية جديدة . مثـــال ذلك حال الصينيين الذين ، مع (الماوية) وحدهـــا ، وهي خصيبة بالطفرات ، تلقوا على الاقل ثلاثة أو أربعة أوبئة متعاقبة : التعدين الذي يضطلع به هواة ، « المائة زهرة » ، (الجماعات) الشعبية ، زعقات (الحرس الاحمر) ، واخيراً نظام (اسبارطة) .

لذا ليس في مكنتنا الا أن نكون متشائمين حول المستقبل القريب . ان القرن العشرين (وربما القرن التالي) ، سيكون في التاريخ قرن الاضطرابات العقائدية ، الا اذا امكن اكتشاف طرق تلقيح نفسي ضد الاوبئة النفسية أو طرق تلقيح روحي ضد الاوبئة العقائدية .

ولكن من الجائز ان نكون متفائلين على المدى الأبعد . ان شيئاً لا يمكن ان يفوز بأولية غير محددة افضل من اولية الواقع ، ومن أولية المعايير التي تسيّر مختلف مجالاته بمرونة الفولاذ وقسوته . ان حذف الاصطفـــاء البيولوجي بصورة سريعة الاشكال المنحرفة العابثة المستقبلية المزعومة ، من اشكال الحياة الجنسية والحياة العائلية انما يمثل الحالة الاكثر جلاء . ولكن احترام المعايير امر « حيوي » بكل معاني الكلمة ، وهو يفرض ذاته تحت طائلة الموت .

ان العقائديين الثوريين من عشـــاق الطرائف مهما كلف الامر ، يثيرون ذهول خصومهم وهم يتكلمون بدون انقطاع عن « الحس التاريخي » الذين يتبعونه كما يقولون ، في حين أن الآخرين يسيرون باتجاه ضد ـ التيار ويغرقون . ان هؤلاء العقائديين قد يكونون على صواب خلال حقبة مـــن

الدهر ، لان التاريخ لا يمضي على خط مستقيم ، وفي وسعه ان يجرفنا في منعطف كبير يعلن عن مفازات موئلة حقاً . ولكن « المحافظين » يلفون الى جانبهم قوانين اعظم قوة من الاتجاه التاريخي الموقوت : قوانين فوق — التاريخية ، وهي تحكم بالموت على العقائديين الذين يغشون مبدأ الواقع ، وهم مخترعو الحركة الدائمة ، والدعاة المتحمسون للمخالفة ، والهدم ، والقلب. والقيم — المضادة . وهذا التفاؤل على المدى البعيد ينبغي أن يعين على تحمل التواءات نهر التاريخ والاضرار التي لا تحصى عداً ، وهي متجددة دوماً ، ولكنها عابرة ، اضرار العقائديات .

فهرست

منشورات عويدات ١٩٧٨/٨/٥٦٩

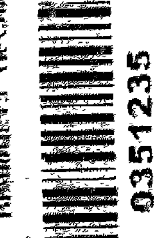


هوذا الجزء الثالث والأخير من ثلاثيتنا التي صدر جزءاها الأولان : « نقد المجتمع المعاصر » و « نقد الايديولوجيات المعاصرة » .

وهـــذا الجزء ، يحاول أن يضع الالتزام الايديولوجي في مساره الصحيح ، مقوّماً غير واحدة من الضلالات التي يقع فيها العقائديون .

من هنا يتحدث عما يدور حول العقائد من أقنعة تبعدها عن خطها الإساسي تارة ، أو تنقض مفهومها الأول تارة أخرى .

وهذا الموضوع ، حمله الى الخوض في التقويم الثقافي الذي غالباً ما يشوه المضمون الايديولوجي اذ ينحو به الى الشخصانية التي تتنافى مع أية صيغة عقائدية . وغالباً ما ينتهي الشغف بالعقائديات ، الى تنازل أخير عن الحس المشترك



ولم يتورع المؤلف عن نعت العقائد المغلوطة بأنها أوب
واجتماعية تصيب المجتمع فتنخره .

وريمون رويّه من أبرز الذين كتبوا في هذا المجال .

له مؤلفات عديدة أبرزها : « فلسفة القيمة » ، و « السير الاعلام » ، و « الاذيات الايديولوجية » التي صدرت ثلاثية لدى منشورات عويدات .

EDITIONS OUEIDAT
Beyrouth – Paris